المحور الأول

(دوائر) التأصيل المعرفى للمفهوم البلاغى

obeikandl.com

obeikandl.com

العناصر الوراثية للمعرفة

- 1 -

يقول الجاحظ فى «البيان والتبيين»: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[1]. وبهذا القول المنقول يربط الجاحظ ربطًا وثيقًا بين الزمن وطبيعته وبين أحوال الناس ونشاطهم، وكذلك شمائلهم وأخلاقهم - ولهذا يقول فى موضع آخر: «ونسيت - أبقاك الله - عمل البلدان، وتصرف الأزمان، وأثارهما فى الصور والأخلاق، وفى الشمائل والآداب، وفى اللغات والشهوات، وفى الهمم والهيئات، وفى المكاسب والصناعات على ما دبَّر الله تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة والتدابير العجيبة»[2].

إنَّ إيمان الجاحظ العميق بأثر التأصيل الزمنى والمكانى فى تكوين الأخلاق وتشكيل طبائع الناس، كما يوضح ذلك الإشارتان السابقتان؛ حيث تكوِّنان رؤية معرفية مهمة تجعل للمنازل والديار بأزمانهم نشاطًا لا يمكن تجاهله، هذا النشاط هو المشكِّل لطبيعة كل رؤية إبداعية أو معرفية. ولمَّا كانت البلاغة تدخل فى خير هذا السياق المعبِّر عن التعدد النشاطى؛ فإنه لزامٌ علينا أن نوصل الدائرة المعرفية التى أفرزت المفاهيم البلاغية بكل مساحاتها فى عصر الجاحظ.. لأنَّ المفهوم البلاغى فى هذا الحيز المعرفى أشبه بـ«دينامية المفهوم الأيديولوجى»؛ والذى أشار إليه (عبد الله العروى) بأنه: «ليس مفهومًا عاديًّا يعبِّر عن واقع ملموس فيوصف وصفًا شافيًا، وليس مفهومًا متولِّدًا عن بديهيات فيحد حدًّا مجردًا، وإنما هو مفهوم اجتماعى تاريخى، وبالتالى يحمل فى ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية، وسياسية

---

(1) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، ط1، ص196.

(2) أبو عثمان الجاحظ؛ **رسالة الأوطان والديار** - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة.

obeikandl.com

عديدة... إنه يمثل تراكم معان؛ مثله فى هذا مثل مفاهيم محورية أخرى، كالدولة أو الحرية أو المادة أو الإنسان»[1].

إنَّ مفهوم البلاغة فى عصرٍ له (ديناميته) المتشابكة؛ وهو عصر الجاحظ، أشبه بما قاله العروى، فهو نتاج مناظرات ومحاورات، بل وثقافات متعددة، لأنه يمثِّل اتجاهات وأعراق، كما يمثِّل أمورًا محورية تعبر عن وجود خاص لكل طائفة من الطوائف المشكلة للمجتمع العباسى آنذاك.

كل ذلك يوجِّه دراستنا هذه إلى اصطناع محاور معينة ترتبط بحيالها الوثيقة مع طبائع وأصول تُفرز مفاهيم البلاغة. وارتباط الإنسان بزمنه يدخل - كما أشار الجاحظ - فى حيِّزٍ شبَّه الابن بأبيه «فمن شابه أباه فما ظلم». فالزمان والمكان يكوِّنان الشكل (الصور)، وكذلك الطبائع والأخلاق؛ أى يصنعان ملامح الشخصية بجوانبها الحية (الصور)، وكذلك بجوانبها المعنوية (الطبائع).

وليس هذا وحده هو أثر ثنائية الزمان والمكان، وإنما لتلك الثنائية (ديناميتها) المتعددة، والتى يجب معرفتها جيدًا، ولذا فقد نبَّه الجاحظ بطريقته الإشارية إلى ضرورة دراسة علاقات الزمان والمكان بالظواهر المتعددة، والتى لا تقف عند الصور والطبائع، وإنما تتسع دائرتها وتنداح أوسع من ذلك لتشمل فى مساحتها شمائل الناس وآدابهم، حيث يؤصِّل للظاهرة الاجتماعية الصانعة لآداب الشعوب ولشمائلها أيضًا، فربطه واضح بين كل تلك العناصر والعناصر الأخرى؛ حيث تتمثل فى اللغات - ولهجات التعبير والنطق -، بجانب نسبية الهمم ودوافعها؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الشهوات والهيئات تتشكل من خلال التشكيل الزمنى والمكانى، فالمناشط الحيوية الإنسانية كلها تتحرك بدينامية الثنائية هذه (الزمان + المكان).

---

(1) عبد الله العروى، **مفهوم الأيديولوجيا**، المركز الثقافى، الدار البيضاء – المغرب، 1980م، ص5.

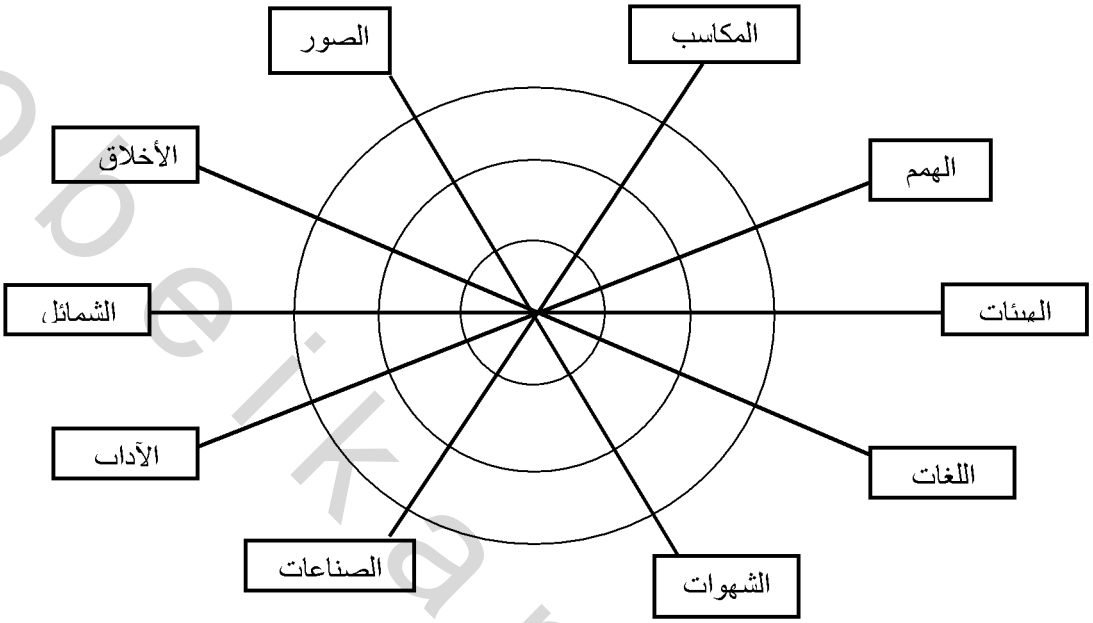

[دينامية الزمان والمكان]

فكل مساحة هذه الدائرة بطاقة مزدوجة من الزمان والمكان لابد من فحصها ودراستها، والوقوف عندها قبل دخولنا فى الحديث عن دينامية مفهوم البلاغة؛ والذى يُعَدُّ إفرازًا صادقًا لهذه الدينامية المزدوجة.

- 2 -

والدخول فى التحديد البلاغى بمفهومه يجب أن يقف أمام ملامح العصر الذى أفرزه - لأنَّ الجاحظ أشار مؤكِّدًا على فاعلية هذه الملامح، وإن لم يحدث ذلك فإن البدء بالدرس البلاغى ومفهومه عند أبى عثمان سيُعد - حينئذٍ - درسًا مبتورًا يؤدى إلى خلل كبير فى الفهم والتناول، فالمفهوم - بذلك - سيكون غير واضح، وليس له جذوره المحددة وأشكاله المعرفية... فمقولات الجاحظ هذه توجب، بل تفرض وترسم بداية تحديد هذا العمل النقدى

لرؤية الجاحظ للمفهوم البلاغة، ولذلك فقد ألـحَّ مـرة أخـرى عـلى ضرورة اسـتعمال المعرفـة قائلاً: «لولا استعمال المعرفة ما كان للمعرفة معنى، كما أنه لـولا الاسـتدلال بالأدلـة لَمَـا كـان لوضع الدلالة معنى، ولولا تمييز الضار من النافع والردى من الجيد بالعيون المجعولة؛ لـذلك جعل الله عَزَّ وَجَلَّ العيون المدركة»[1].

فمعنى ذلك أننا نعود إلى تحديد ملامح المعرفة من خـلال مقولتـه الأولى؛ وذلـك بـربط المعرفة بصلاتها الوشائجية المهمة من خلال زمنها ومكانها، ثم الاسـتدلال بـما حققتـه المعرفـة من نتائج ونظريات تقودنا إلى الدراسة السليمة، وبالتالى إلى القراءة النقدية الحقَّة.

إنَّ الملمح الزمنى المكوِّن لأشكال وصور الناس وهيئاتهم، وربط هـذا الملمـح بـالتكوين المعرفى، ثم الوصول بعد ذلك إلى قوانين واستدلالات خاصة تعمل على إظهار ملامح منهجية معينة أمر من الأمور المحققة لنظرية القراءة؛ وبخاصة نظرية القراءة المتصلة بالمفهوم البلاغـى وأبعاده عند الجاحظ.

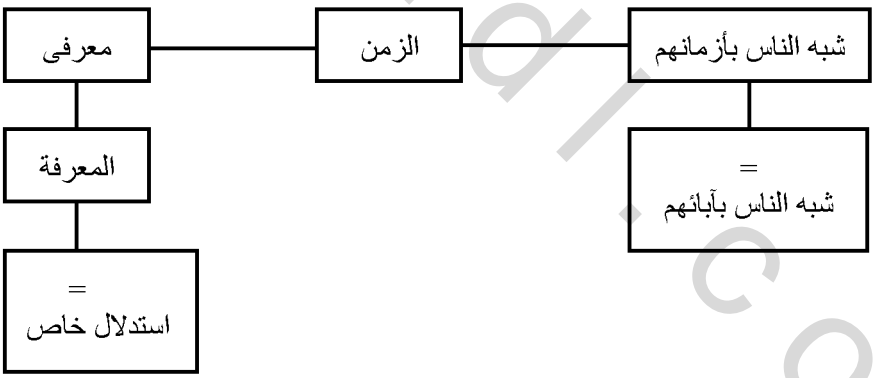

[الزمن الذى يؤدى إلى تحديد ملامح المعرفة]

(1) أبو عثمان الجاحظ؛ كتاب «الحيوان»، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثانى، مكتبة الحلبى، القاهرة، ص115.

obeikandl.com

ولأنَّ القراءة النقدية الجديدة للتراث تنادى بتواصل الدائرة الأبستمولوجية (المعرفية) لدى القارئ للشىء المقروء بعصره، فإن هذه الدائرة تتماس مع دائرة العصر (عصر القارئ)، فيأتى التفاعل الذى يؤدى - بدوره - إلى تأصيل القراءة نفسها.

ولمَّا كان الهدف - لدينا - هو قراءة فى المفهوم البلاغى عند الجاحظ بين التأثير والتأثُّر؛ فقد رأينا أنه من المحتم رسم الدائرة المعرفية لعصر الجاحظ، ثم ربطها بعد ذلك بالمفهوم البلاغى عنده، وهو مفهوم ينبُع من تلك الدائرة، ويُعَدُّ جزءًا تأسيسيًّا منها.

إذن فهذا المحور سيدرس الجذور التى أسست المعارف لعصر المفاهيم المدروسة، ثم كيف نمت الجذور وأنتجت سوقها؛ حيث ازدهرت وآتت قطافها دانية فى مصطلحاتها ومفاهيمها، **وستقف هذه الدراسة على أبعاد؛ هى:**

البُعد الأول - عبقرية الزمان :

- 1 -

إنَّ قراءة المفهوم البلاغى عند الجاحظ لهو - بالضبط - قراءة لنتاج ثقافى لعصرٍ من العصور تصارعت فيه عناصر المعرفة، كما هو - أيضًا- نتاج اجتماعى لفئات من الناس، حيث تتفاعل تلك الفئات مع تراثها وثقافتها، كما يُعَدُّ - أيضًا - قراءة لعنصر امتدادى ارتبط بموروث سابق لا يمكن إهماله. فنحن - إذًا - أمام دائرة كبيرة المساحة لا يمكن الولوج بدونها إلى دائرة المفهوم البلاغى «وهو بالطبع أقل حجمًا منها». فالوقوف على هذه الدائرة (الأوسع) - ونعنى دائرة عصر الجاحظ المعرفية - هو وقوف من يمسك بأطراف خيوط متشابكة ومعقدة فى آنٍ واحد، ولكن هذه الخيوط مرتبطة بروابط هندسية وكوِّنت بمهارة ودقة بالغة.

ومساحة دائرة عصر الجاحظ المعرفية خليط من الثقافات الصاخبة المتعددة الأصوات، والمتنوعة الألسن؛ فقد عاش الجاحظ فى عصرٍ كان يزخر بالعلوم والآداب، هو العصر الذهبى للأُمة العربية، عصر (هارون والمأمون والمتوكل)، حين كانت معاهد البصرة وبغداد والكوفة

وقرطبة وسائر عواصم الإسلام تفيض بالآداب والعلوم والفنون، وكان المعين فيَّاضًا مترعًا، والتأليف والترجمة لهما دويٌّ شديد فى كل صقع، والعلماء والأدباء فى نشاط عجيب، يصل الليل بالنهار والغدوّ بالآصال[1].

-2-

فالمساحة المعرفية كانت تموج بحركاتها غير المتوقفة، الأمر الذى صنع (دينامية) استمرارية تفرز مفاهيمنا المتعددة فى توال غير متوقف، وعصر هذا شأنه المائج الزاخر بشتى المعارف والعلوم لا يجعل تناول مفهوم من مفاهيم التعبير الفنى وحدةً منفصلة، بل هى مساحة متوارة من مساحات أخرى.

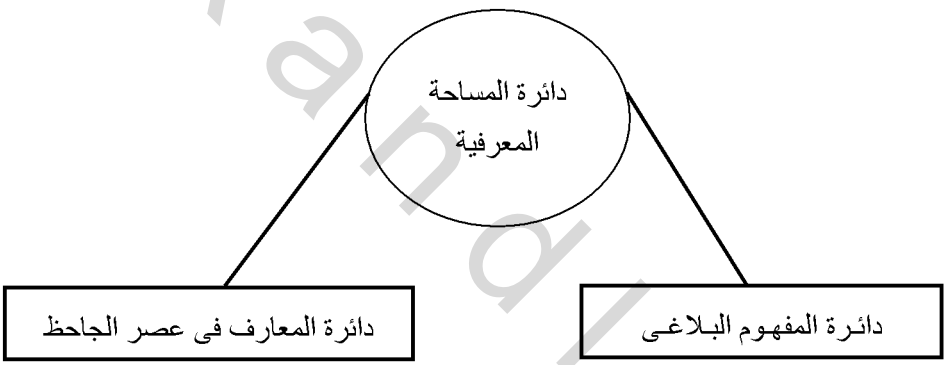

ولا تقف الدائرة الكبرى بمعارفها المائجة وحدة منفصلة، بل تتصل بدوائر أخرى. فالقرن الثالث الهجرى لا يمكن فصله بحالٍ من الأحوال عن القرن الثانى الهجرى - «فعلماء القرن الثالث الهجرى كانوا مخلصين للموروث الذى نقلوه عن أساتذتهم، وكانوا يرون أن الحل للمشكلات الأدبية هو تطوير النظريات التى أخذوها عن أساتذتهم»[2].

---

(1) عبد السلام هارون؛ **قطوف أدبية ودراسات نقدية فى التراث العربى**، مكتبة السُّنَّة، القاهرة، ص170.

(2) إحسان عباس؛ **تاريخ النقد الأدبى**، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة، 1986م، ص77.

فالجاحظ عاش فى عصر امتداد فكرى واتصال معرفى، لقوى من بين الامتداد والاتصال تلميذًا وأستاذًا، وقد كان بنفسه صورة صادقة لانعكاس التلون المعرفى فى عصره، وهذا ما يبدو فى اختياراته للمفاهيم البلاغية، والتى تعكس التداخلات الدقيقة المعبِّرة عن تداخلات المعرفة.

obeikandl.com

البُعد الثانى - عبقرية المكان :

- 1 -

وبجانب هذا الامتداد الزمنى ومساحته؛ فإن الجاحظ عاش فى عصر ارتبط بحيِّزه المكانى، والناس أيضًا أشبه بأماكنهم منهم بآبائهم، فكان للتأثير المكانى دوره الكبير فى صُنع المكونات الثقافية. وبخاصة بلاد (البصرة والكوفة وبغداد). ودارس البلاغة بمفاهيمها وأبعادها لا يمكن له الابتعاد عن هذه المدن، وما كان يموج فيها من حركة أجناس متعاقبة متفاعلة[1]. ولأن للمكان أثره العميق فى الفن القولى، فقد أشار الجاحظ إلى نظرية العرق المؤثرة فى قول الشعر؛ فيقول فى كتابه «الحيوان» عن الشعراء وأقوالهم وتنوعها: «وإنما ذلك فى قدر ما قسم الله لهم فى الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق»[2].

- 2 -

وعندما يبدأ الجاحظ حديثه عن البلاغة ومفهومها فإنه يلجأ إلى نظرية تداخل الأجناس؛ فيختار -أولاً - التعريف البلاغى المتعدد بفعل تعدُّد الأجناس البشرية ذاتها. لقد جمع بين الفارسى والرومى والهندى واليونانى؛ وكلهم فى خيطٍ واحد مما يدل على أن هذه الأجناس كانت متواجدة بحياتها الطبيعية فى مكانٍ واحد.

ولأن دراستنا تنبُع - أساسًا - من تكامل الدوائر ونظرية التواصل بينها، فإننا - إذن - سننظر فى أثر عبقرية المكان[3]، ودور هذه العبقرية فى تأصيل المفاهيم فى كافة المجالات؛ هذا

---

(1) يُنظر: الفصل الخاص «الجاحظ فى البصرة»، تكوينه الفكرى - ضمن كتاب شارل بلات «الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء»، ترجمة: إبراهيم الكيلانى، مؤسسة الخانجى، القاهرة، 1961م، ص90 وما بعدها [حيث يتناول موضوع تداخل الأجناس المتعددة من الفُرس والهنود والروم وغيرهم، وسيطرة هذه الأجناس على طبيعة الحياة الثقافية والاجتماعية].

(2) الحيوان؛ الجزء الرابع، ص381.

(3) هذا مصطلح كان السبق فيه للعلَّامة جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر»... دراسة فى عبقرية المكان.

من جهة.. ومن جهة أخرى فإن رؤية الجاحظ الثقافية والفكرية، هى رؤية حركية (دينامية) نبعت من الرغبة فى بث روح الحياة فيها من خلال أعلامها وثقافاتها، ولهذا فقد لجأ إلى التصوير القائم على الرؤية التشخيصية للمكان، مما يُعطيه أهمية وجود وتأثير فعَّال فى الحركة المعرفية – يقول فى موازناته البلدانية: «وقال زياد: الله للكوفة أشبه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم»[1].

فهذا الاختبار وجد هوًى كبيرًا فى نفس الجاحظ فى عمل نظرية «الإناسة المكانية»؛ حيث يجهِّز لها كل أبعادها لتكون نظرية ذات عمق غير مسبق فى هذا الميدان – فيقول: «وقد رأينا اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن»[2]. ولا تتعجب عندما ترى أنَّ هذه الإشارة قد جاءت فى موسوعته البلاغية الشهيرة «البيان والتبيين»؛ فوجودها فى حيز الحديث عن البلاغة بكل عناصرها وأبعادها يلمِّح إلى دلالات مقصودة عنده، فأبو عثمان لا يضع قولاً فى موضعه الأول إلَّا وله هدف سياقى مقصود، فموضوعاته المتعددة فى كتابٍ واحد ينظمها خيط قوى مفتول الفكر والمعرفة والتأصيل، ويشد هذا الخيط بذكاء بارع من صاحبه، ولهذا ينبه فى ذات الموسوعة قائلاً: «وعلى قدر ذاك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات»[3] . فعلى قدر التأثير المكانى والتأثير الخاص به يلاحظ تنوع اللغات والأخلاق، وكذلك الشهوات؛ بل إن الإنسان يُلْحَق ببلدته فيُنسب إليها مدحًا وذمًّا فى خصاله المختلفة، ولذلك قالوا: «فلان ابن نجدته، وفلان بيضه البلد يقع مدحًا وذمًّا»[4].

شخصية البصرة والبناء المعرفى :

لقد جاء هذا التعليق – الجاحظى – بعد ممارسات طويلة وخبرات متواصلة غير متوقعة فى جميع مواده العلمية من أماكنها فى رحلات شاسعة، عاش خلالها طبقات عديدة متنوعة.

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الثالث، ص294.
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.
(4) المرجع السابق.

ولقد اهتم الجاحظ اهتمامًا كبيرًا برسم ملامح البصرة بصفة واضحة، وذلك من خلال أعماله الفنية؛ حيث نرى التركيز على أن يكون ذكر البصرة فى مواضع كثيرة، ولكنها غير مكررة حتى يستطيع الباحث أن يكوِّن ملامحه الذاتية، وانطباعه الشخصى عن هذا الإقليم، ولذلك فإنه يصدر به حكاياته فى البخلاء؛ فيأتى موضوع «قصة أهل البصرة من المسجديين»[1]، بعد رسالة سهل بن هارون وطرق أهل خراسان، ونحن نعلم ما كان للمسجد من وظائف أساسية فى الانتشار المعرفى وتأصيل المفاهيم، ومناقشة وتعليم الدرس البلاغى ذاته.

لقد كانت البصرة – كما يقول شارل بلات – «فى بادئ أمرها فسيفساء من اللغات والتنوع اللغوى، ورغم ذلك كان هناك توحيدًا لغوى ونهضة فكرية بارز»[2].

ولا ينفرد الجاحظ باهتمامه بالحديث عن البصرة ومكانتها، فـ(ابن قتيبة) يكرِّر ذكرها فى أعماله، خاصة تلك الأعمال الموسوعية، فتتفلفل فى نسيج هذه الأعمال لتكوِّن وحدات أساسية، ولا يقف (المبرد) بعيدًا عن ذلك، فقد عنى بذكر البصرة أيضًا ورسم شخصيتها، ولذلك وحسب هذا الاتجاه المُلِح لذكر مكانة البصرة فى التأصيل المعرفى، فإن دراستنا لتلك المدينة من الجهات المعرفية أمر تحتمه دراسة المفهوم البلاغى عند الجاحظ، ذلك المفهوم الموسوعى الممتد – **وستأتى دراستنا إذن فى أربع نقاط هى:**

النقطة الأولى – التشخيص المعرفى والمكانى :

إنَّ ذكر البلدان يأتى فى محورنا هذا كنقطة معرفية ملحَّة ومهمة؛ فالجاحظ ألحَّ فى غير موضعٍ على تلك الأهمية، وصورة البصرة المشكَّلة من معارف أعلامها ليست صورة جغرافية فتنأى بمسافات عن حيز دراستنا هذا، فهى صورة تشخيصية لملامح معرفية ثقافية

(1) الجاحظ؛ البخلاء، حقق نصَّه وعلَّق عليه: طه الحاجرى، دار الكتاب المصرى، القاهرة، 1948م، ص24.

(2) شارل بلات؛ المرجع السابق، ص176، 177.

متداخلة ومتواصلة – يقول ابن قتيبة: «قال الحكماء: المدائن لا تُبنى إلَّا على ثلاثة أشياء: الماء، والكلأ، والمحتطب»[1]. وقد أخذت البصرة بهذه الحظوظ دورًا مهمًّا فكانت مدينة لها تاريخها، تأصلت فيها المعارف المتداخلة، وعلت فيها أصوات متعدد، ونطقت بها ألسُن مختلفة تدل على جنسيات كثيرة عديدة، كلٌّ بلسان أهله. ومن هنا يُشير الجاحظ إلى أهمية الاستقرار الجغرافى ووجود الأنهار الراوية للمعارف، فالماء العذب يشُق البصرة كلها؛ ويقول: «مَرَّ غيلان بن خرشه الضمبى مع عبد الله بن عامر على نهر أُم عبد الله الذى يشق البصرة؟ فقال عبد الله: ما أصبح هذا النهر لأهل هذا المصر؟ فقال غيلان: أجل والله أيها الأمير، يعلِّم القوم صبيانهم فيه السباحة، ويكون لسُقياهم ومسيل مياهم، وتأتيهم فيه ميرتهم»[2].

لقد جاء الجاحظ بهذا الشاهد ليعبِّر عن أثر استقرار المكان فى الازدهار العلمى، وفى التكوين الثقافى، وبجانب كل ذلك فكان حلقة اتصال بالآخر من الأجناس المتعددة، فهو مرفأ ترتاده السفن من شتَّى بلاد المشرق[3]. وهذه الحركة الاقتصادية كان لها تأثيرها الواضح على طبيعة علم وأخلاق أهل هذا الإقليم – «فقد كانت الدماثة وتقديم حُكم العقل صفة لأهل هذا الإقليم»[4].

واختلاط الناس بالبصرة ليس حديث عهد بالقرن الثالث الهجرى الذى عاشه الجاحظ، وإنما كان هذا الاختلاط من قديم، فطبيعة التداخل النسيجى المتعدد للثقافات سمة هذا العصر الذى نتحدث فيه عن المفاهيم البلاغية.

---

(1) ابن قتيبة؛ **عيون الأخبار**، الجزء الأول، ص313.

(2) **البيان والتبيين**؛ الجزء الثالث، ص294.

(3) عبد الحميد الشلقانى؛ **رواية اللغة**، دار المعارف، القاهرة، 1971م، ص64.

(4) المرجع السابق.

openkandil.com

النقطة الثانية – البصرة والتماذج العقلى والثقافى منذ القِدَم :

– 1 –

ولقد تأثر هذا الإقليم بماضيه العقلى السحيق، والذى تعددت فيه الجنسيات، وذلك قبل الفتح الإسلامى له، فقد عُرف بتداخل أجناسه – كما رأينا – الذى هو أصل لتماذج وتداخل ثقافى من الصعب فصله إلى وحدات مستقلة أوَّلية حسب تحول هذا المخلوط إلى مركَّب، فانصهرت المعادن كلها فيه، وصُبَّت فى ذراته ثقافات متنوعة؛ دخلت فيها اللغة، والبلاغة والعلوم الأخرى – «فقد أُتيح لهذا الإقليم منذ أقدم عهوده ما يُتاح لمثله من الأقاليم التى تقع فى طريق التجارة البحرية الواسعة، فكان ملتقى الأجناس الكثيرة والفعليات المختلفة والنوازع المتعددة، كان أهله خليط من الأمم المختلفة فوق أهله الأصليين، وهم من الجنس النبطى والآرامى، ولليونانيين فيه مقام ملحوظ»[1].

ولذلك كانت الحياة فى هذا الإقليم متصارعة متداخلة، دفَّاقة بالعلم والمعارف، فلكل جنسية من هذه الجنسيات دوافعها وعلومها ومعارفها، وبالتالى لها بلاغتها بمفهومها الخاص، ولقد أدَّى هذا التخالط للأجناس العديدة فى البصرة إلى رسم طبيعة الحياة فيها بالحركة والتدافع – « فلقد أصبحت الحياة معقَّدة أشد التعقيد، متدافعة أعنف التدافع، جيَّاشة فوَّارة بمختلف النزعات وشتى النزوات»[2].

(1) طه الحاجرى، **الجاحظ**، دار المعارف، القاهرة، ص42.

(2) طه الحاجرى؛ نفسه، ص96.

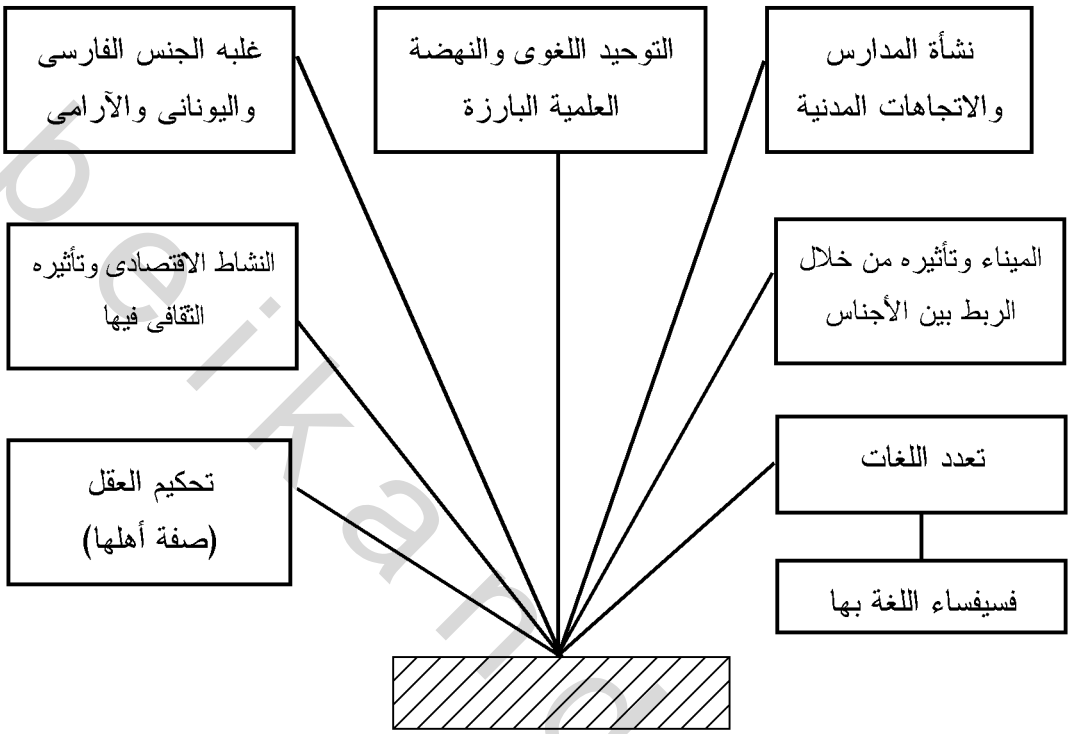

(عناصر تكوين شخصية البصرة، والتأصيل المعرفى للأصول البلاغية)

وهذه الحياة الصاخبة فى المجال العلمى الثقافى فى البصرة عكست ملامحها وظلها على أعلامها؛ خاصة (الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد)، وهؤلاء هم مثلث التأصيل الأدبى والبلاغى فى هذا العصر، فقد حدَّد هؤلاء المعالم الواضحة للجانب الأدبى.

-2-

لقد تعامل الجاحظ مع البصرة بحبه الخاص الكبير؛ فكانت شخصيتها الأدبية والاجتماعية بكل خطوطها وظلها لا تفارقه، فهى مَعِين استمد منها معظم خبراته المعرفية، إنه حب الأوطان والديار، الذى تملَّكه وأشار إليه فى رسالته «الأوطان والديار» ، ولذلك فقد قال

عنها: «كان يقال الدنيا كلها للبصرة»[1].

فهذا هو المدخل الخاص لرؤية الجاحظ المكانية لهذا الإقليم، ولا يمكن لدارس الرؤية البلاغية عنده أن يبتعد عن دائرة التكوُّن الاقتصادى والاجتماعى، والتى تفرز الاهتمام الثقافى فى هذا الإقليم خاصة.

لقد كانت الحياة فى هذا الإقليم سهلة ليِّنة غير مكلِّفة، وتلك من الأمور المساعدة للانتشار الثقافى والتعدد المعرفى، ولذلك فإن الجاحظ كان حريصًا - أيضًا - على الإشارة إلى هذا التفضيل الاقتصادى للبصرة، وهو عامل أساسى فى التأصيل المعرفى والاستقرار المعرفى - يقول: «وليس فى الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لا يُغريها النقد، وكل مبيع بها يمكن، والشامات وأشباهها الدينار والدرهم بها عزيزان، والأشياء بها رخيصة لبعد المنقل»[2].

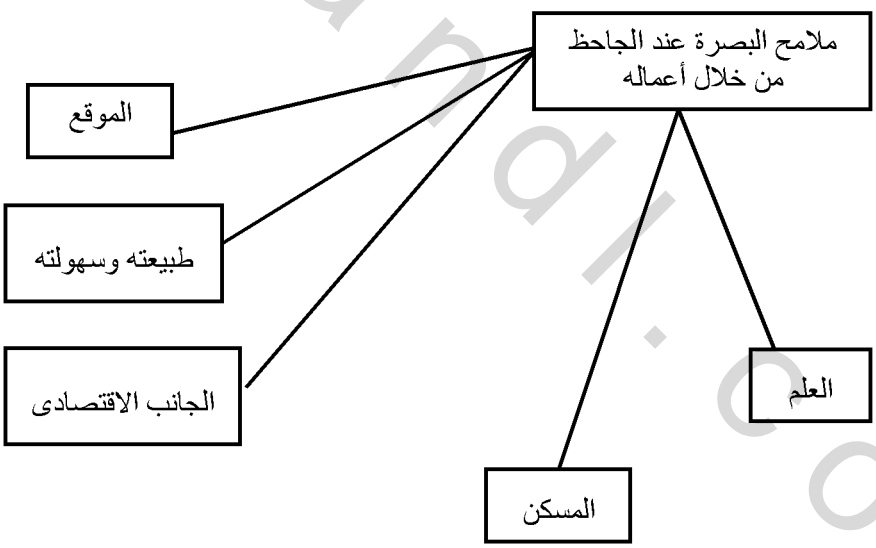

ملامح البصرة عند الجاحظ من خلال أعماله

(1) الجاحظ؛ **رسالة الأوطان والبلدان** – ضمن رسالة الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الرابع، ص138.

(2) الجاحظ؛ **رسالة الأوطان والبلدان**، ص145.

obeikandl.com

ولم يقف الجاحظ عند هذه الخطوط، بل أسهم فى وضع ورسم خطوط أخرى لتكتمل ملامح الصورة التشخيصية لهذا المكان، وبالتالى تظهر ملامحه العلمية بتأثيرها - ولهذا فقد أشار إلى مسكن الإنسان وسهولته ورخصه وراحته أيضًا[1].

النقطة الثالثة - الصراع بين البصرة والكوفة :

- 1 -

والاهتمام البارز بحيِّز المكان ونشاطه أدَّى إلى توليد الصراع المعروف بين المساحات المكانية؛ من حيث دينامياتها المتعددة فى كل الأمور، فالصراع المعرفى بين البصرة والكوفة ثابت فى حركة العلم، وهو مما أدَّى إلى إيجاد اتجاهات عكسية مخالفة، كلٌّ يحاول إثبات رأيه، وهذا الصراع أدَّى إلى إثراء الدرس اللغوى، والنحوى، وكذلك البلاغى، وعمل على نشأة المدارس والاتجاهات وتدعيم كل اتجاه ومدرسة بالآراء والحجج، وانتشرت الفِرَق، وعلا شأن الوظيفة البلاغية التى هى إبلاغ فى ذلك الوقت. فقد عاش الجاحظ - بعمره المديد - الصراع المحتدم أواره بين البصرة والكوفة، وهذا الصراع كان يزكيه حب وهوى بين البلدين، كلٌّ يتعصب بحبه وهواه إلى مكانه. وهذا الاختلاف الحادث بين البصرة والكوفة يرجع إلى اختلاف المزاج العقلى لكلّ من المصرين، والعصبية بين المصرين لا تقتضى بذاتها اختلافًا بينهما؛ فهى ليست أكثر من اندفاع الكائن الاجتماعى بطبيعته لحماية كيانه وبروز ذاتيته للدفاع عن نفسه إزاء كائن اجتماعى آخر ينافسه على خطوط الحياة، فهى نزوح طبيعى يقوِّى فى ذلك الكائن الاجتماعى شعوره بنفسه ليكون أشد تماسكًا[2].

واختلاف المزاج العقلى بين البصرة والكوفة ألقى بظلاله على طبيعة التفكير، وبالتالى على جوهر اختيار المفاهيم والمعارف، وكانت البلاغة بمصطلحاتها ووظائفها من أهم العناصر التى عالجها هذا المزاج الخاص. ومن هذا المنطلق - منطلق شخصية المكان - ومزاجها

---

(1) نفسه؛ ص145.

(2) طه الحاجرى؛ الجاحظ، ص75.

وتأثيراتها كان اهتمام الجاحظ الكبير والمُلِح فى ضرورة ذِكر البصرة فى «البيان والتبيين» – موسوعة الدرس البلاغى العربى.

فيقول مبينًا فضل البصرة، بل وفضل رجالها وذلك من خلال استشهاده بخطبة الأحنف بن قيس؛ يقول الجاحظ عن أحنف: «قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على نبيه: يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخواننا فى الدين، وشركاؤنا فى الصّهر، وأشقاؤنا فى النَّسب، وجيراننا فى الدار، وَيَدُنَا على العدو، والله لأزد البصرة أحبّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفى أحبّ إلينا من تميم الشام»[1]. فذلك الملمح يُبرز طبيعة الرؤية والتفكير، كما يُشير إلى هذا التفضيل الذى لا يقف عند الجاحظ وحده، بل يبدو فى مظاهر كثيرة، لها دينامياتها فى السير المعرفى، وفى آليات الرؤية.

– 2 –

ويلح الجاحظ على رسم صورة البصرة بنبضها الحى وأثرها فى طبيعة نفوس أهلها بطريقته المعروفة فى تشخيص الأمور – فيقول: «وقال آخر – يقصد غير الأحنف –: ما أسى على البصرة إلَّا على ثلاث: رطب الشكر، وليل الحزيز، وحديث أبى بكرة»[2]. وبالطبع فإن هذا القول يكرِّر القول السابق بالتفصيل ولكنه يضع أسبابًا له، وهذا ما أراده الجاحظ نفسه من نقله لهذا القول؛ لأنه يقوى الظاهرة ويبحث عن كل دقائقها. ويأتى الجاحظ بمثالٍ آخر «البيان والتبيين» مدللاً على مكانة البصرة فى تأصيل النَّسب؛ يقول: «عن (عبد الله بن زياد): أنه صعد المنبر بعد موت (يزيد بن معاوية)، وحيث بلغه أن (مسلمة بن ذؤيب الراحى) قد جمع الجمع؛ يريد خلعه، فقال: يا أهل البصرة أنسبونى، فوالله ما مهاجر أبى إلَّا إليكم ولا مولدى إلا فيكم، وما أنا إلَّا رجل منكم»[3] . فالمكانة السياسية التى نلحظها من هذه القول تُضيف إلى ملامح البصرة ملمحًا بارزًا فيربط الجانب المعرفى بالجانب المكانى؛ فتجمع له قوة إلى قوة.

---

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الثانى، ص135.

(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الثانى، ص37.

(3) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الثانى، ص190.

النقطة الرابعة – مساجد البصرة والتأسيس البلاغى :

– 1 –

ويهتم الجاحظ اهتمامًا كبيرًا بإظهار دور المسجد الخاص بالتأسيس المعرفى فى مدينة البصرة، فيقدِّم رؤيته المؤسَّسة على الاستشهاد الفعلى فى المجالات المتعددة؛ فيقول عن حلقات مساجد البصرة واتخاذها مجالاً للتعليم: «وكان جعفر ابن الحسن أوَّل من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن فى مسجد البصرة»[1] . فدور المسجد كان واضحًا فى تأسيس الجانب المعرفى، وفى انتشار حلقات العلم، ودراسة القرآن الكريم، وهذه من الأمور التى أنشأت البلاغة العربية؛ فالوجود البلاغى بدأ بهذه الحلقات، وبدأ فى النظر فى تفسير وفهم القرآن الكريم، ومحاولة معرفة جوانبه الإعجازية عن طريق دراسة اللغة والبلاغة، والجاحظ – بذلك – يُشير تلميحًا إلى فضل البصرة فى التأسيس البلاغى.

ومن هذه الإشارة الجاحظية تتولد رؤية أخرى مقصودة وهى التنبيه على دور الخطابة وأهميتها فى مساجد البصرة، وبصفة خاصة المسجد الجامع. ومن المعروف أن البلاغة العربية نشأت فى أحضان الخطابة، فهى الميدان الذى شاهد ميلادها، وعاصر تطورها، ووسمها بصفتها الخاصة؛ فهى فن القول[2] القول الشفاهى أولاً، والذى من آلاته رباطة الجأش، وقوة التعبير، وفصاحة القول، ولهذا فقد حرص الجاحظ على ذكر مكانة الخطابة فى البصرة، وذكر أول من جمع الناس بالمسجد الكبير وخطب فيهم – يقول الجاحظ: «وأول مَنْ جمع الناس وخطب فيهم عبد الله بن عباس، وأول من عُرف بالبصرة بن عباس، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ففسَّرها حرفًا حرفًا، وكان يسيل غربًا»[3].

وبالطبع فإن استشهاد الجاحظ بهذا الموقف له دلالته فى التأسيس المعرفى للبصرة بمكانها

---

(1) نفسه، الجزء الأول، ص276.

(2) أمين الخولى، فن القول [حيث يُشير إشارةً واضحة إلى الصلة القوية بين الأسلوبية والبلاغة؛

(3) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، ط1، ص85.

ومكانتها، وهو – أيضًا – إشارة إلى جذور النشأة البلاغية التى كانت تردف مع الخطابة – «فالخطابة عنده بمعنى البلاغة؛ أتت فى كثيرٍ من النصوص التى أوردها ملحوظًا فيها معنى الخطابة، وكثيرًا ما نراه يضع لفظى (البلاغة والخطابة) فى جملة واحدة مترادفين كما يضع كلمة (البليغ) مرادفة لكلمة (الخطيب) »[1].

ولأن البلاغة عند الجاحظ ردفت مع الخطابة فقد اهتم بالإشارة إلى الأعلام وإلى الشخصيات المهمة التى اعتلت منبر مساجد البصرة وخطبت فيه كنوع من التأصيل المعرفى، فكان حرصه على ذِكر كثير ممن أعتلى منبر البصرة وخطب فوقه – يقول عن أحد أعلام الخطابة؛ وهو سوار بن عبد الله «وكان سوار بن عبد الله أول تميمى خطب على منبر البصرة، ثم خطب عبد الله بن حسن وولِّى منبر البصرة أربعة من القضاة فكانوا قضاة أمراء: بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، وسوار، وعبيد الله، وأحمد بن أبى رباح؛ فكان بلال قاضيًا ابن قاض ابن قاض»[2].

– 2 –

وَذِكْرُ أعلام الخطابة هدف مقصود لذِكر وتاريخ الدرس البلاغى نفسه، ولهذا فقد عنى الجاحظ بذكر خطب أصحاب الخطب الشهيرة، وضمَّن «البيان والتبيين» متونًا متعددة من خطبهم استكمالاً للدائرة المعرفية البلاغية التى يرسمها. ولا ينسى الجاحظ التنويه بأحسن الخطباء لسانًا وتعبيرًا؛ فيورد قول الحجاج عن أخطب الناس فى البصرة فيقول: «كان الحَجَّاج يقول: من أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة، إن شاء خطب، وإن شاء سكت – يعنى الحسن – فيقول: لِمَ ينصِّب نفسه للخطابة»[3].

ولا يقف الجاحظ عند هذه الخطوط ؛ ولكنه أراد توضيح شيوخ البصرة أصحاب القول

(1) عبد العزيز عتيق؛ فى **تاريخ البلاغة العربية**، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ص120.
(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص294.
(3) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص101.

obeikandl.com

الشهير بين الناس، فيورد الأقوال المأثورة والتى تربط بين المكان وعبقرية الشخصية - فمن ذلك قوله: «وكانوا إذا ذكروا البصرة، قالوا شيخها الحسن، وفتاها بَكْر»[1].

وإذا كان هذا هو موقف الجاحظ المؤصِّل المؤرِّخ الدارس للفهم البلاغى، فإن ابن قتيبة العالِم الفقيه يسير مع الجاحظ فى هذا الاتجاه؛ وهو ابن الكوفة المتعصب لها، فيُشير بكل قوةٍ إلى أهمية قضاة البصرة، وإلى أهمية اختيار هؤلاء القضاة وولايتهم على العراق، حيث يقصد الكوفة[2].

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص389.

(2) يُراجع: ابن قتيبة؛ **عيون الأخبار**.

obeikandl.com

البُعد الثالث – الشخصية وعبقرية المعرفة :

يأتى هذا البُعد الثالث متصلاً بالبُعدين السابقين، بل هو امتداد لهما؛ فشخصية المكان وعبقريته وشخصية الزمن وعبقريته – أيضًا – لهما التأثير البيِّن فى رسم شخصية وعبقرية الجاحظ، وفى تحديد ملامح الثقافة لها؛ تلك الثقافة التى صنعت نظرياته المعرفية المتعددة، بل لقد سما الجاحظ فوق الزمان والمكان – فقد يسمو الكاتب فوق الزمان والمكان، فيكون كالنجم الخالد الذى يُمْكِن أن نلاحظه فى أزمان مختلفة وفى أماكن متباعدة، ويبقى دوره هو هو يُبهر الناظر إليه، ويشد المتطلع إليه[1] . فلقد ارتقى الجاحظ بعبقريته وصنع نظريته المعرفية الجاحظية، والتى بدونها لا يُفهم علمه الواسع الكثيف، فشخصية الجاحظ – ذاتها – ظاهرة أدبية ثقافية، لا يُفهم الأدب بدونها، ولا يُفهم العلم العربى بدونها – أيضًا –، وبالتالى لا تُفهم العناصر البلاغية بغيرها – «فقد عاش فترة عرفت عددًا من التحولات والمتعرجات الحاسمة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وفى ما كتب الرجل شهادة عما يمكن أن يعبِّر أعمق تعبير عن تلك التحولات وأهمها»[2] .

إنَّ الحديث عن مفهوم البلاغة بدون درس شخصية الجاحظ وفحص ثقافته محاولة للوصل إلى جذور أُسسها المعرفية ضرب من الهذيان، وإقصاء لطريق المفهوم البلاغى عنده، بل فى عصره الذى هو – كما وصفوه – عصر التأسيس، فرسم شخصية الجاحظ المعرفية هو رسم لشخصية عصره وشخصية المكان الذى نشأ فيه أو اتخذه ساحة عملية وحقولاً فعلية لتجاربه العلمية أيضًا. ومن هنا كان لهذا البُعد أهميته المميزة، كما له نقاطه التقسيمية الخاصة؛ وهى :

---

(1) انظر: داود سلوم؛ **الجاحظ مفكرًا معاصرًا**، مجلة المورد، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والفنون، العراق، المجلد السابع، العدد الرابع، 1978م، ص17.

(2) حمادى صمود؛ **التفكير البلاغى عند العرب**، منشورات كلية الآداب، تونس، الطبعة الأولى، 1981م، ص138.

obeikandi.com

النقط الأولى - الأصل والانعكاس :

- 1 -

لقد عاصر الجاحظ ثقافات أجنبية متداخلة فى عصره، فكانت نتاج تغلغل ثقافى قديم، وهذا أمر لا يُمكن إنكاره، فهناك الثقافات الهندية والنبطية والفارسية[1]. إنَّ الخليط السكانى من شتَّى بقاع العالم - والذى أشرنا إلى وجوده خاصة فى مدينة البصرة بشكل بارز - له أهميته وملامحه فى التكوين العقلى لسكان هذا الإقليم، وله تأثيره المعرفى الخاص عند الجاحظ؛ حيث صنع ملامح ثقافته - «فهو الأديب بعلوم العصر، والتَهَمَ كل ما بداخل البصرة من علوم العصر الهليني، وقد عرف الفارسية وكان ينقل إلى كتابته بعض تعابيرها، وتلقَّى علوم الحديث كأى رجل من رجال الدين، وقيل: أنه اهتم نسبيًّا بالقراءات وأخذ اللغة عن الأصمعى وأبى زياد الأنصارى؛ وكلاهما بصريان، ومن ثَمَّ أصبح موسوعة حتى جرؤ فتكلَّم عن حالات دقيقة عن الحيوان»[2].

ولم يكن الجاحظ فردًا من هذا الأمر وحده، فإن أشهر العلماء فى عصره قد نحوا هذا الاتجاه، فظهرت ثقافاتهم المتعددة الجوانب، وكثُرت اهتماماتهم وتلميحاتهم إلى الأمم الأخرى، وإلى أثرهم الثقافى، فتغلغلت فى نسيج معارفهم - فهذا ابن قتيبة؛ يُشير فى معارفه، وفى عيون الأخبار إلى الثقافات المتعددة للجنسيات المختلفة وأثرها فى التكوين الثقافى، وفى أذواق الناس العامة، وذلك فى حيز البصرة وبغداد والكوفة[3]. ولأن هذا التكوين المختلط والمكوِّن لسبيكة منصهرة عن عدة ثقافات لعدة جنسيات، فقد جاءت المفاهيم البلاغية - وفقًا لذلك - انعكاسًا لهذا التكون المتداخل والمنصهر أيضًا.

---

(1) يُنظر: أحمد كمال زكى؛ **الحياة الأدبية فى البصرة**، دار المعارف، القاهرة [حيث أشار إلى هذا الأمر بتوسع متخصص، ص132 وما بعدها].

(2) أحمد كمال زكى؛ **الحياة الأدبية فى البصرة**، دار المعارف، القاهرة، ص134.

(3) هذه الظاهرة متمثلة بشكلٍ بارز عند: الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد.

obeikandl.com

- 2 -

ولقد صنع الجاحظ لنفسه سمة أدبية مميزة؛ حيث اعتمد على الإسهاب الناتج من عمق ثقافاته المتنوعة، كما ساعدت هذه الثقافة على دقة ولطف الاحتجاج عنده، وبذلك كان زعيم مدرسة أدبية تنتمى إلى الإسهاب ولطف الاحتجاج، ودقة التبيين[1]. وهذا الاتجاه الفنى الأدبى كان له آثاره الخاصة فى رسم اختيارات الجاحظ للمفاهيم البلاغية؛ حيث تكتمل دائرة السياق التكوينى الموسوعى، فالإسهاب انعكاس للثقافات المتعددة التى جمعها: الثقافة البيانية ولطف الاحتجاج؛ الذى يدل على الجانب العقلى المتسع عنده – كذلك –، ودقة التبيين أمرٌ دال على صنعته الفنية المائزة فى المجال البلاغى.

إنَّ شخصية الجاحظ المعرفية لا تنفصل – بحالٍ من الأحوال – عن مفاهيمه، فاختياره منهج إسهابى وطريقة أدبية وأسلوب يتسم بهندسة مقصودة لا عشوائية.

النقطة الثانية – دينامية التلمذة :

- 1 -

فى خضم هذا العصر الذى عايشه أبو عثمان استطاع أن يتفاعل مع كل الاتجاهات الفنية المعرفية؛ فقد عاصر الجاحظ هذه الفترة الموسومة بالتطور العلمى والثقافى، وذلك فى عصرٍ عُرف بالاستقرار فى كل جوانب المعرفة، لقد ازدهرت الترجمة وتنوعت المشارب والميول الأدبية المتعددة، وبجانب الترجمة ترى المختارات وتشاهد الموسوعات المعرفية، وتأتى المذاهب والاتجاهات الفنية للشعراء والأدباء، وبجانب كل ذلك نرى المؤلَّفات النقدية والبلاغية. وتحرك الجاحظ ليلم بكل هذه الأبعاد، عاملاً على احتوائها شغوفًا بكل ما فى عصره، لا يمل الاطِّلاع، ولذلك تحرك حركة غير متوقفة، حركة دائبة ليلم بكل الأبعاد المعرفية. وتواصلت جهوده واتصالاته للتلمذة ولأخذ العلوم بشتى معارفها ومشاربها كذلك، فقد اتصل بعظماء فى الدين والآداب؛ مثل (الأصمعى، وأبى زيد الأنصارى، وأبى

(1) عبد السلام هارون؛ **قطوف أدبية**، ص170.

عبيدة معمر بن المثنى، والأخفش، والنظام، وإبراهيم بن سيار البلخى، وصالح ابن جناح اللخمى)، وأخذ اللغة والأدب عن الثلاثة الأولين، والنحو عن الأخفش، والكلام عن النظام، والحكمة عن ابن جناح[1].

- 2 -

ولقد أخذ (الأصمعى) بنصيبٍ كبير عند الجاحظ فى حيز الرواية عنه، والأخذ منه، والأصمعى هذا عُرف باتصاله الوثيق بالأعراب والنقل عنهم، عُرف بسياحاته الطويلة فى سبيل العلم، ويظهر حيِّز الاهتمام برواية الأصمعى عند الجاحظ فى ثنايا أعماله، حيث يردِّد دائمًا قوله المعروف (الأصمعى قال)، أو (قال الأصمعى). والمعروف أن الأصمعى كان بدوره – موسوعة علمية كبيرة؛ فقد كتب فى كل مجال، وهو انعكاس لعلوم العصر الذى عاشه[2]. ونستطيع الاطِّلاع على الطبيعة المعرفية للجاحظ؛ وذلك من خلال حديثه عن جمعه لمواده العلمية وتلمذته على يد الأساتذة، ورحلاته فى سبيل ذلك – حيث يقول: «ولم أر غاية النحويين إلَّا كل شِعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلَّا كل شِعر فيه غريب، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أر غاية رواة الأخبار إلَّا كل شِعر فيه الشاهد والمثل، ورأيت عامتهم وقد طالت مشاهدتى لهم، لا يقفون إلَّا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة، وعلى الألفاظ السهلة العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمَّرتها من الفساد والقديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حِسان المعانى، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكُتَّاب أعمّ وعلى ألسنة حُذَّاق الشعراء أظهر»[3].

---

(1) محمد على كرد على، **أمراء البيان**.

(2) أحمد كمال زكى؛ المرجع السابق، ص135.

(3) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الرابع، ص24.

وهذا الكلام المسهب يدل على منهج الجاحظ المعرفى من خلال جهده الذاتى فى التحصيل والتنقيب، من حيث عرضه فى موسوعته البلاغية «البيان والتبيين»، وبالطبع فإن هندسة وضع الكلام فى حيزه المكانى هندسة مقصودة ومصنوعة لدى الجاحظ، فالتنسيق المنهجى جعله ينظر فى المساحات المرسومة، كما جعله يضع قوله فى أماكنها التى تولَّدت بها دلالاتها، وكتاب «البيان والتبيين» وما يشمله من اختيارات كثيفة عديدة هو منهج – أيضًا – قصده الجاحظ، فقد تساوق وانتظم مع هذه الإشارة ليؤكد عرضه وطريقته.

إذن والجاحظ بهذا القول يمثِّل ظاهرة نقدية تراثية تحتاج لقراءة أخرى غير هذه القراءات التقليدية التلخيصية التى شملته بحثًا ووصفًا. إنَّ الظاهرة الجاحظية حقل فسيح للقراءة النقدية الجديدة ببُعدها النظرى التطبيقى[1]؛ من حيث وصف العمليات والتصورات أو الآليات العقلية التى تقوم عليها عملية القراءة هذه[2]؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الجاحظ كشخصية معرفية معينة تخضع للقراءة الجديدة من المنظور التطبيقى كذلك، فالقراءة النقدية الجديدة فى جانبها التطبيقى تعتمد على تقديم قراءة أو قراءات تطبيقية متعددة، حيث تدخل الشخصية موضوعًا مهمًّا لها[3].

- 3 -

فموقف الجاحظ بهذه الخيوط التكوينية وبمجهوده البارع تُعَدُّ شخصية ذاتية تنضم إلى نصوص التراث المتعددة، والتى هى بحاجة إلى قراءة نقدية جديدة؛ فروافد ثقافته المشار إليها تشكِّل نسيجًا محكمًا ودقيقًا للنص التأثيرى عنده، نص التكوين المعرفى المفتوح بأبعاده غير

(1) انظر: جابر عصفور؛ **قراءة التراث النقدى مقدمات منهجية**، دار سعاد الصباح، القاهرة، 1992م، ص19 [حيث يُشير إلى منهجية القراءة النقدية الجديدة للتراث، والمتمثلة فى الدلالة المزدوجة المكونة لمستويين هما: الأول: المستوى النظرى، والثانى: المستوى العملى التطبيقى، حيث وضع أصولاً دقيقة لآليات القراءة الجديدة].

(2) نفسه؛ ص19.

(3) نفسه، ص19.

المحددة، فبحث عن شعرية أوجه الإعراب المتعددة، ليكون مركزًا للدراسة وشاهدًا لمنطلقات علمية مقصودة، مما يدل على تطور الاستخدام النحوى، والذى لم يكن مقصورًا على معرفة الصواب من الخطأ الكلامى، وهذا أمر له وظائفه فى الاحتجاج البلاغى وتأويل النص بعدة زوايا ورؤى. كما يدل نص الجاحظ هذا على العناية بالتكوين الفنى للقول وتركيبه فى سياقه الإبداعى، وهذا ما يُشير إلى تطور الرؤية البلاغية المهتمة بالنسيج الفنى للكلام ذاته، من كل زواياه التى يحرص عليها الجاحظ دائمًا فى قوله، وذلك من جهة الموسيقى والرونق والمعانى المرتبطة بألفاظها وسياقاتها، وهذا أمر لا يتأتى إلَّا لخاصة المبدعين.

النقطة الثالثة – الانتقاء وخاصية المعرفة :

– 1 –

اعتمد الجاحظ – كما اعتمد معاصروه من النقاد – على ظاهرة الانتقاء، وهى ظاهرة تعبِّر عن أهم خصيصة فى التشكيل الأسلوبى، فالاختبار لا يأتى وفق أمور خاصة تنبع من رؤى معينة، ويدخل فى حيز الانتقاء هذا اختيار الجاحظ وأسلوبه مع أساتذته الذين أثروا فيه وتعصَّب لهم، فأكثر من ذِكرهم فى أعماله؛ حيث يأتى هذا الذكر من جوانب فنية وليست جوانب استشهادية وحسب. فخيارات الجاحظ عناصر مقصودة لمواده ورؤاه، ومفاهيم البلاغة عنده هى اختيارات، كذلك جاءت فى سياق كلى عنده، ولهذا لا يمكن فصلها عن سياقات التكوين الأخرى، وترتبط الاختيارات هذه بأعلام اهتم بهم الجاحظ وحرص على أن يكون لهم مهمة الأستاذية؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن التكوين المعرفى لم يقف عنده أمام الأعلام المذكورة فى ثنايا كتبه، بل بث فى أعماله كلها اختياراته المكوِّنة لرؤى متماسكة؛ وإن كانت تبدو متشعِّبة، فالتكوين المعرفى عنده – إذن – هو تكوين متواصل، ومتشعِّب فى آنٍ واحد، ومن الصعب تحديده، فهو ممتد امتدادًا فسيحًا، ومع ذلك فقد كان أبو عثمان ماهرًا شديد المهارة فى تحكُّمه فى خيوط الثقافات المتعددة، يختار منها ما يتناسب مع طبيعة منهجه ورؤيته، وحتى فى اختيار من أخذ منهم، فهى اختيارات دقيقة تحرِّكها

دينامية «البيان والتبيين» الشاملة لأعماله كلها. فاختياره للأصمعى لرواية اللغة وإقراره من ثَمَّ بما جاء به؛ من باب مشاركته كل ما قدم من أمور، حيث اعتمد الأصمعى – بدوره – على ذات المنهج الانتقائى، فهو – إذن – منهج اختيارى سائد فى تشكيل الثقافات والمعارف فى عصر الجاحظ.

ولقد اعتمد الجاحظ على إظهار جوانب العلم والمعرفة كلها عند الأصمعى؛ فكانت اختياراته متقنة ومتنوعة، حرص فيها على إظهار كل الجوانب التى أتقنها الأصمعى، وبذلك لا يقدِّم الجاحظ معارف متعددة للأصمعى فحسب، ولكن يضع القارئ على نظرية المعرفة، فيؤدى ذلك إلى محاولة معرفة الأصمعى بكل معارفه وعلومه. وهذا الأسلوب نَهْجٌ عُرف به الجاحظ، فاختياراته البلاغية جاءت وفق هذا الاتجاه، الأمر الذى يجعل قارئ الجاحظ ينقِّب عن أبعادها، فقد أضاء له كل الجوانب، فعليه – إذن – البحث الجاد فى ذلك، يتوج الجاحظ رؤيته للأصمعى عندما يعرض قول الأصمعى نفسه «وصلت بالعلم ونلت بالملح»[1].

- 2 -

ولم يكن الاستشهاد بالأصمعى والأخذ بعلومه وقفًا على الجاحظ وحده فى عصره، ولكننا نرى سريان هذه الاستشهادات منتشرة عند (ابن قتيبة والمبرد) كذلك، ولذا يؤصل الأصمعى الرؤية عند مثلث العلم والمعرفة؛ وهم: (الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد).

وامتد هذا التأثير فى عصور متتابعة عند (أسامة بن منقذ والبيهقى) وغيرهما. إن التداخل المتشعِّب كان ديدن عصر الجاحظ ورفاقه، فقد كثر المعلمون وانتشر علمهم فى كل مكان؛ نقلاً وكتابة، ولهذا حرص الجاحظ على الأخذ من أصحاب العلم الراسخين فيه، فمِنَ الذين شكَّلوا الجانب المعرفى عنده – بجانب الأصمعى – (أبو عبيدة معمر بن المثنى)؛ الذى قال عنه

(1) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص199.

ابن خلكان: «بأنه ليس فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم لجمع العلوم منه»[1]. ومن أشهر كتب أبى عبيده «مجاز القرآن» الذى تأثَّر به الجاحظ كثيرًا، ويُعَدُّ من الكتب التى أسست للمفهوم البلاغى وللدرس العلمى لها، كما تُعَدُّ أعماله كلها دائرة معارف متنوعة تتماثل مع دائرة معارف الجاحظ نفسه؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن هذه الدائرة تتداخل بموادها العلمية مع دوائر المعارف الأخرى والتى ألفت فى هذا العصر، ولهذا يُشير ابن خلكان إلى مؤلفاته بقوله: «أَلَّف عشرات الكتب التى استفاد منها الجاحظ؛ مثل: كتاب مجاز القرآن الكريم، وكتاب التاج، وكتاب الموالى، وكتاب الحمام، وكتاب الحيَّات، وكتاب العقارب، وكتاب الزرع، وكتاب لصوص العرب»[2].

وهذه المؤلفات هى مجالات اشتُهر بها الجاحظ أيضًا، فلا شكَّ أن لأبى عبيدة تأثيرًا كبيرًا فى علوم الجاحظ ذاتها، فقد كتب الجاحظ فى كل موضوعاته مؤلفات أبى عبيدة هذه خاصة الحيوان، ورسائله الشهيرة.. ونحن نعلم أن الجاحظ يضمن معارفه رؤاه البلاغية؛ أى أن هناك تأثيرًا معينًا فى تشكيل مفاهيمه البلاغية، ومن هنا فإن فهم هذه المفاهيم لا يكتمل دونما الرجوع إلى تلك الأصول المعرفية التى استقى منها الجاحظ.

(1) ابن خلكان؛ **وفيات الأعيان**، الجزء الرابع، ص323، ويُنظر كذلك: ابن النديم؛ **الفهرست**، ص71.

(2) ابن خلكان؛ **وفيات الأعيان**، ج4، ص326.

obeikandi.com

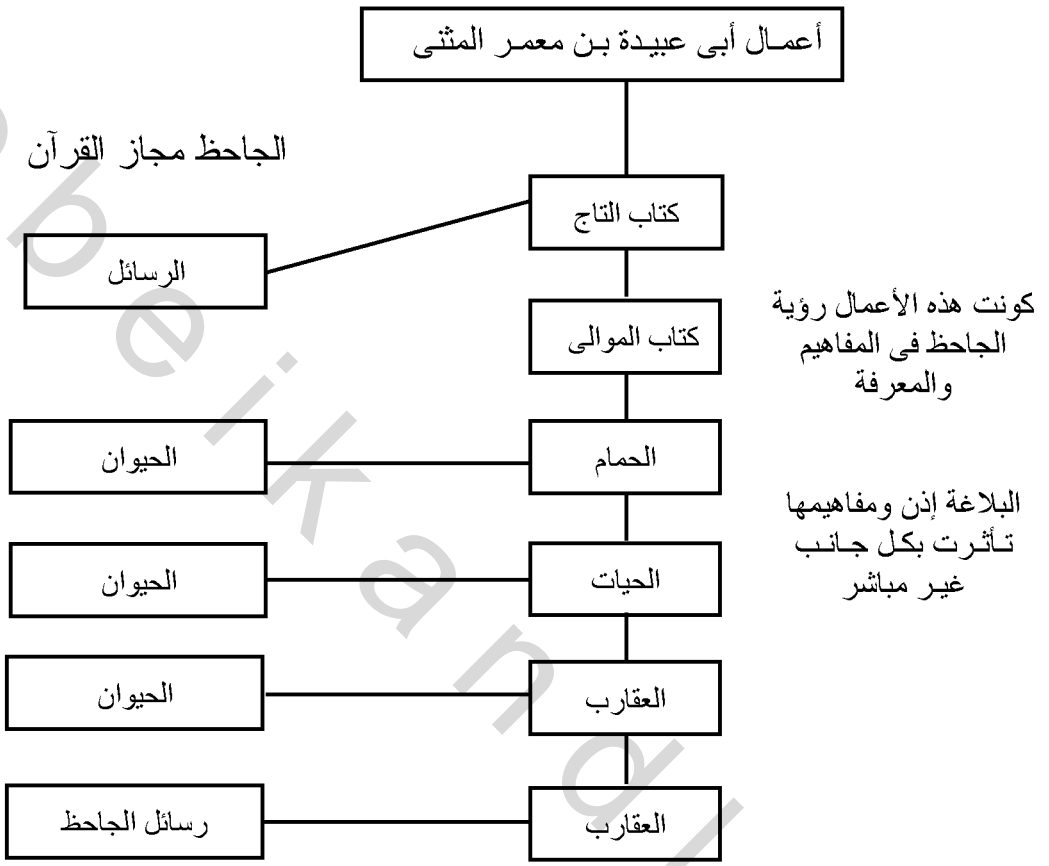

- 3 -

أمَّا العالِم الثالث الذى رفد الجاحظ من علمه الكثير فهو (أبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى)؛ وقد كان أبو زيد هذا ثقة كبيرة فى رواية اللغة، وهو أستاذ الجاحظ، كما عُرف عنه التشعب المعرفى المتسع. لقد كوَّن هؤلاء الثلاثة زوايا المثلث المعرفى الواسع المساحة عند الجاحظ، فكل زاوية لها رسوخها الخاص ولها قوة بنائها الذى لا يمكن هدمها بحالٍ من الأحوال.

obeikandl.com

داخل هذا المثلث يتكوَّن مثلث تنداح مساحته مع مساحة المثلث السابق ويتكون رؤس هذا المثلث من: **(أبو الحسن المدائنى)**؛ وقد أخذ عنه الجاحظ كثيرًا وتردد اسمه فى كثير من أعماله[1] ، فهو يمثِّل الزاوية الأولى من هذا المثلث.. والزواية الثانية فيمثِّلها **(هشام ابن محمد الكلبى)**، وأما الزاوية الثالثة فيمثلها إمام العربية وعالمها وفقيها **(الإمام الشافعى)**، والذى يقول عنه عبد السلام هارون: «كان من أدق الناس خبرة بالعربية وأوسعهم فقهًا فيها، واطِّلاعًا على أسرارها، وحسبك أن تعرف أن الأصمعى - وهو الأمام الأكبر - قرأ على الشافعى أشعار الهذليين وصحَّهها»[2]. ولهذا فإن الجاحظ كان معجبًا به، فأخذ ينهل من علومه بعدما تبيَّن له أنه أحسن العلماء تأليفًا - يقول: «نظرت فى كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفًا من (المطلبى)؛ كان لسانه ينظم دُرًّا»[3].

فأخذه عن الشافعى كان انتقاء فنيًّا، جاء بعد اطِّلاع ومدارسة متأنية، فتعلَّم منه بلاغة التأليف، وجمال القول فى العلم، ويُضاف إلى هذه الروافد المعرفية عند الجاحظ رافد أساس ومُهِم، شكَّل رؤيته المعرفية، ونظَّم مفاهيمه البلاغية بخيوطه القوية عنده، وهذا الرافد هو الاعتزال؛ فمن المعروف أن البلاغة العربية نشأت فى أحضان هذا الاعتزال، حيث كانت صنعة الكلام وسيلة لإثبات آراء المعتزلة وحججهم. والجاحظ ليس معتزليًّا فحسب، ولكنه صاحب فرقة عُرفت بالجاحظية[4] . وقد شغف برءوس الاعتزال وأعلامه، فبث حديثه عنهم وعن اتجاهاتهم فى ثنايا أعماله؛ خاصة «البيان والتبيين» - ولذلك يقول (شوقى ضيفًا): «ذلك الشغف وكان من أهم ما شغف به الاعتزال، وقد مضى يلزم أساتذته فى عصره، ويستوعب كل ما كان عندهم، بادئًا بأبى الهذيل العلاف، وكلما اشتهر معتزلى لزم حلقته، وكان من أهم

---

(1) عبد السلام هارون؛ **قطوف أدبية**، ص171.

(2) نفسه؛ ص171.

(3) نفسه؛ ص172.

(4) عبد القاهر بن طاهر البغدادى؛ **الفَرْق بين الفِرَق**، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ص129، وحديثه عن الفرقة الجاحظية.

من لزمهم النظام»[1]. ويبدو ملامح هذا التأثير الاعتزالى الكلامى فى خطوط متعددة وسمت أعمال الجاحظ بطبيعتها، فأخذ يتحدث عن أعلام الاعتزال حديثًا طويلاً متنوعًا، واهتم بصفة خاصة بواصل بن عطاء؛ المسمَّى بـ(الغزال)، فصدر حديثه عن صفته مدافعًا عنه فى أول موسوعته البلاغية «البيان والتبيين»، ولهذا الموضع دلالاته الخاصة؛ حيث الانتقاء المكانى – أيضًا –، فالانتقاء المعرفى يحكمه منهج وضوابط عنده، ووضع هذه الانتقاءات يحكمها انتقاء آخر فى المكان.

ويأتى الدفاع عن واصل بن عطاء (رأس الاعتزال) من خلال إفراده لفصل خاص فى وجه البيان؛ وسمى هذا الفصل «دفاع عن واصل بن عطاء»، وذلك من خلال حديثه عن الصراع الواقع بين واصل وبشار بن من برد، ويلمس الدفاع عنه أيضًا جوانب شخصية؛ فيدافع عن سبب تسميته بالغزال – وذلك بقوله: «لأنه كان يُكثر الجلوس فى سوق الغزالين، إلى عبد الله فطن الهلالى»[2].

إنَّ ذِكر (واصل) فى هذا الموضع المهم تنبيه إلى البحث عن صفاته التى جعلته يتبوأ منزلة كبيرة فى فن القول، رغم لباقته المعروفة، ولكن إذا وجب القول تدفق كالسيل المنحدر فى الوادى، فلا يترك مقالاً لقائل، ولا شبيه لمشتبه، وهو بصير بمرامى الكلام وغاياته»[3]. وقد تبوأ (واصل) مكانته القولية الأولى كحُجَّة بائنة وكوسيلة أساسية لأصحاب الاعتزال، فجاءت شهرته من جهوده وصفته، وحُجَّته وبيانه، حتى وضعه الجاحظ متصدرًا لبيانه وفاتحًا لتبيينه، وذلك لأنه كان (خطيبًا عليم الخواطر بالنفوس، حاضر البديهة، قوى الارتجال»[4]. فمنزلة (واصل) جاءت من هذه الصفات القولية، ونحن نعلم أن الجاحظ قد سوَّى بين الخطابة والبلاغة؛ فالخطيب عنده هو البليغ، والبليغ هو الخطيب، فجاء هذا الانتقاء لشخصية

(1) شوقى ضيف؛ **العصر العباسى الثانى**، دار المعارف، القاهرة، ص589.
(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص33.
(3) انظر: محمد أبو زهرة؛ **تاريخ الجدل**، دار الفكر العربى، بيروت – لبنان، 1980م، ص340.
(4) المرجع السابق؛ ص211.

obeikandl.com

واصل بن عطاء موافقًا لمذهب الجاحظ، ومدعِّمًا لرؤيته من جهة... لما جاء موافقًا لصفاته البلاغية القولية من جهة ثانية - ولذلك يقول ثابت بن قرة عن صفات الجاحظ القولية وحججه الناصعة: «أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين، ومدرة المتقدمين والمتكلمين؛ إنْ تكلَّم حكى سحبان البلاغة، وإنْ ناظر صارع النظام فى الجدل؛ شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثيرة»[1].

ومن هذه الصفات القولية كان انتقاء الجاحظ للدرس المعرفى المشكَّل لثقافاته المختلفة؛ فكان انتقاؤه لأعلام الخاصية الاعتزالية المدعم للرؤية البلاغية عنده، حيث أولع - أيضًا - بشخصية النظام بأبعادها الاعتزالية، فذكر اسمه بما يُعرف عن عشر مرات فى كتابه «البيان والتبيين»، ولهذا الذكر دلالاته المقصودة من جهة التأصيل البلاغى بالاتجاه الاعتزالى، كما كرر ذكره فى كتاب «الحيوان» بشكل مكثف؛ حيث ورد اسمه أكثر من تسع وستين مرة. ولم يقف الجاحظ عند هذا الذِّكر، بل أنه ركَّز على أدائه والاعتداد بأقاويله - ويقول: «وخبَّرنى أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام وكذا، لا ترتاب فى حديث أن حُلِّى عن سماع أعيان»[2].

فالجاحظ يثق فيما يقول (النظام) أستاذ فى الاعتزال، ولذلك يأخذ كل ما جاء عنه بدون ارتياب أو شك، ورغم ذلك لم يسلم النظام نفسه من انتقادات للمتدة الشخصية، فقد وصفه (بأنه أضيف الناس يحمل السر)[3]. وبهذا الوصف يطبِّق الجاحظ «منهج التحسين والتقبيح»، فقد سادت هذه الرؤى الشخصيات الاعتزالية التى عرض لها فى أعماله؛ فيتحدث عن العلاف (موسى بن مويس)، وسهل بن هارون الذى وصفه بالبخل؛ وكان إحدى شخصياته فى كتابه «البخلاء»، برغم الإعجاب ببلاغته ومقدرته التعبيرية،

---

(1) المرجع السابق؛ ص211.

(2) الجاحظ؛ **الحيوان**، الجزء الرابع، ص222.

(3) الجاحظ؛ **الحيوان**، الجزء الخامس، ص187، [أسلوب التحسين والتقبيح أسلوب خاص بالاعتزال، ويمكن رؤية ذلك فى أعمال الجاحظ خاصة فى كتابه «الحيوان»؛ يُنظر: الحيوان، الجزء الأول، ص88].

وتمثل هذه الرؤية الضدية عند الجاحظ رغبة معينة يتناول من خلالها الأمور، فيُظهر بها كل الجوانب المتصارعة، فتعد لذلك مَنْهَجًا مقصودًا استفاد من الانتماء الاعتزالى إلى القائم على التحسين والتقبيح. وتأتى كثير من آراء المعتزلة مبثوثة فى نقايا أعمال أبى عثمان، وهذا تأسيس مهم لتناول مفهوم البلاغة. وشروط القول الحسن كما ورد فى صحيفة تشرين المعتمر، وليس الإتيان بها كنوع من الأصول المشكلة للقول البليغ إلَّا من باب ربط الأصول البلاغية بالنهج الاعتزالى - «أى بمنابعها التى استقت منها هذه الأصول». ومن الاختيارات الدقيقة لأصول المعرفة عند الجاحظ ما أخذه عن الأخفش (أبو الحسن سعد بن مسعدة) فى النحو، وجلوسه عنده. ومن المعروف أن الأخفش كان واسع الإطلاع، وأكثر آئمة النحو البصريين بعد سيبويه[1]. وبجانب هذه الصفات فقد كان الأخفش يعتنى بالعقل، ويهتم بالحدود والتعريفات معتمدًا على الأدلة العقلية[2]. ورغم ذلك فقد أشار الجاحظ إلى الغموض الذى يكتنف كثيرًا من كُتبه، فلم تكن كلها مفهومه ويبدو ذلك من حديثه القائل: «وقلت لأبى الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فَلِمَ لا تجعل كتبك مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدِّم بعض العويص وتؤخِّر بعض المفهوم؟ فقال: أنا رجل لم أصنع كُتبى هذه لله، وليست هى من كُتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلَّت حاجتهم إلىَّ فيها، فإنما كانت غايتى المثالة، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى الناس إلى فِهْمِ ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير؛ إذ كنت إلى التدبير ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان، يكتبون لله بزعمهم، ثم يأخذ مثلى فى موافقته، وحُسن نظره، وشدة عنايته، ولا يفهم أكثرها»[3]. ومن قول الجاحظ هذا وَرَدّ الأخفش عليه نفهم عدة أمور هى :

---

(1) شوقى ضيف؛ **المدارس النحوية**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1976م، ص95.

(2) راجع الحديث عن الأخفش وصفاته فى «**المدارس النحوية**»، ص95 وما بعدها.

(3) الجاحظ؛ **الحيوان**، الجزء الأول، ص91، 92.

أولا: كان الجاحظ تلميذًا مخلصًا للأخفش؛ حيث اعتبره أستاذًا لا يبارى فى علمه بالنحو والعربية، فجانب صفات الذكاء والذهن الثاقب، كان عالمًا بلغات العرب[1]، وعنه قد أخذ النحو؛ وهو العلم الأول فى ميدان المعرفة والتأسيس البلاغى.

ثانيًا: وجود الاستغلاق المتعمد فى بعض الكتب فى ذلك العصر، واعتباره منهجًا مألوفًا، وذلك نتيجة للتداخل المعرفى والثقافى، واتساع حيز المعارف وتشابكها.

ثالثًا: نفهم من هذا القول أن هناك جهدًا كبيرًا كان يُبذل فى هذا العصر من قِبَل الكاتب، وكذا المتلقى، كما نرى العناية بالجدل والمناقشة ومراجعة التلميذ لأستاذه.

رابعًا: الحث على البحث العلمى والمناقشة، وكذلك المناظرة، وتلك أمور انتشرت بشكل أساسى فى عصر الجاحظ.

خامسًا: إن إشارة الأخفش إلى النظام وإلى أعماله، التى يبدو فيها الغموض تدل على أن الجاحظ كان يتعاطف معه (النظام) كثيرًا، فاهتمامه بالتلمذة الاعتزالية على أهم أعلامها؛ مثل: (النظام، وثمامة بن أشرس، وأبى الهذيل العلاف)، إلى جانب شخصيات بلاغية أخرى أثَّرت فى التكوين البلاغى عنده، ومنها شخصية سهل بن هارون، يظهر فى ثنايا أقواله.

فبجانب جلوس الجاحظ إلى أستاذه النظام وأخذه منه ومناقشة ومراجعة آرائه، فقد أخذ الكثير من ثمامة بن أشرس النميرى، فنقل عنده فى أعماله أقواله الحكيمة ورؤيته للحيوان، وهذا دليل على عناية المعتزلة بموضوع الحيوان الذى دُرس من كل جانب، واعتمد عليه كرمز مهم له دلالاته الخصبة، وهم بذلك الاستخدام الرمزى يؤصِّلون لأهمية الصورة البلاغية، وبخاصة الاستعارة بأبعادها التعبيرية.

وتتميَّز رؤية الجاحظ المعرفية لأعلام الاعتزال بالدفع الضدى، فهو يرسم لمعظم هؤلاء الأعلام صورة إيجابية ساخرة، عدا شخصية واصل بن عطاء، وهذا منهج بلاغى أيضًا، حيث يهتم ببلاغة التعبير إلى جانب بلاغة السخرية ذاتها. والجاحظ بذلك الاتجاه يقوم على رؤية

(1) شوقى ضيف؛ **المدارس النحوية**، ص95.

تأصيلية عنده تعتمد على فنية المحاسن والأضداد، وبجانب كل هذه المعارف المتداخلة والمنتقاة فإن الجاحظ لا يتوانى مطلقًا فى توسيع دائرته الثقافية، بل يحرص حرصه المعروف على الانتقاء المتواصل، والذى يتساوق مع رغبته ومنهجه المميز. ولهذا تستمر ديناميته المعرفية ولا تفتأ تتحرك نحو كل اتجاه معتمدة على التحصيل والتلمذة. وتبرز فى هذه الدينامية شخصية لها حركتها المعرفية البلاغية، وهى شخصية سهل بن هارون الشهيرة، فقد كان سهل من أهم الخطباء فى الشعر والخطابة – كما رأينا – هى البلاغة ذاتها. ولهذا يقدِّم الجاحظ هذه الشخصية مبينًا جوانبها المعرفية المتعددة؛ فيقول: «ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب، والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المخلدة، والسير الحِسان المجوَّدة، والأخبار المولدة (سهل بن هارون بن راهبونى) الكاتب، صاحب كتاب «بقلة وعفرة»، فى معارضه كتاب كليلة ودمنة، وكتب الإخوان، وكتاب المسائل، وكتاب المخزومى، والهذلية، وغير ذلك من الكتب»[1].

فمن هذا الوصف لسهل بن هارون نستطيع استخلاص الجوانب المعرفية التى حرص عليها الجاحظ، وتابعها مع سهل بن هارون؛ وهى:

1 – الجمع بين الشعر والخطابة.

2 – الرسائل الطوال والقصار.

3 – الكتب الكبار والجوانب التأليفية، وهنا تأتى أهميتها باعتبارها آلات المعرفة فى عصر الجاحظ –فتخليد الكتب يعنى ثبوت المعارف وتداولها.

4 – الإشارة إلى التدوين فى السِّيَر واختلاف المعارف، بجانب الاهتمام بالروايات المتعددة.

(1) الجاحظ؛ **الحيوان**، الجزء الأول، ص52.

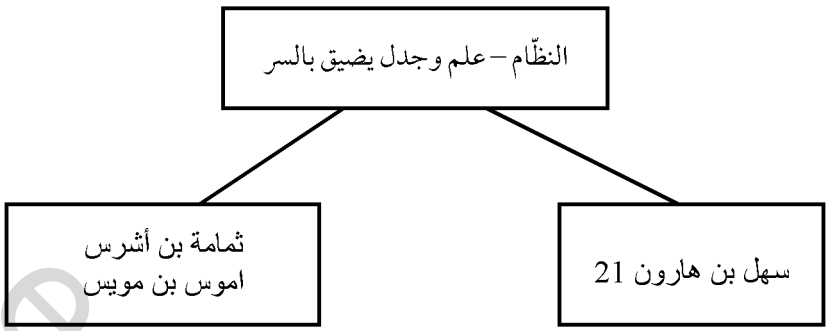

الجانب الضدى وشخصيات الاعتزال عند الجاحظ ومذهب التحسين والتقبيح

ولم يلبث الجاحظ أن طبق مذهبه الضدى على شخصية سهل بن هارون، فعقد فى «البخلاء» قصة عن بُخله وشُحه[1]، بجانب وجاهته – يقول الجاحظ عن وصفه الإيجابى لسهل: «وكان سهل فى نفسه عتيق الوجه، حسن الإشارة، بعيدًا عن القدامة، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، بدقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف»[2].

ومن خلال الشخصيات التى استقى الجاحظ منها معرفته نراه يرسم صورة مقصودة لفن المناظرات، والتى تُعَدُّ أساسًا لقيام الدرس البلاغى من جهة الوظائف الإقناعية.

لقد عاصر الجاحظ الموجة الاعتزالية العارمة فى عصره، شارك فيها مشاركته الفعالة، حيث كان طرفًا إيجابيًّا فى كل فنون المعارف المتداولة آنذلك. وقد كانت هذه الموجة الاعتزالية – من جميع أطرافها – أكبر قوة فاعلة فى تطور النقد الأدبى أثناء القرن الثالث، لا بأشخاص أصحابها وحسب؛ بل من خلال المتأثرين بها[3]. واهتمام الجاحظ – إذن – وإلحاحه على

(1) انظر القصة الخاصة بهذه الصفة فى كتاب «**البخلاء**» للجاحظ، ص9 وما بعدها.
(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص89.
(3) إحسان عباس؛ **تاريخ النقد الأدبى**، ص69.

obeikandl.com

الاحتكاك الكبير بزعماء الاعتزال، والأخذ عنهم كان غرضًا طموحًا فى ذلك العصر مع فاعلية النقد الأدبى؛ والذى ارتبط بالبلاغة ارتباطًا وثيقًا.

إن عرضنا للتأصيل المعرفى للسياق البلاغى عند الجاحظ يُعَدُّ لُحمة أساسية فى الدرس البلاغى المتسعة المساحة فى عصر أبى عثمان نفسه، فى عصر بحث علماؤه عن تنوع المعارف، وجهدوا أنفسهم فى حدها؛ حتى قال الجاحظ نفسه فى إحدى رسائله: «وزعم معمر بن عياد السلمى أن العِلم عشرة أجناس؛ خمسة منها دُرك بالحواس... والعلم السادس كالسير الماضية، والبلدان القائمة... والسابع: علمك بقصد المخاطب إليك وإرادته إياك، عند المحاورة والمنازعة[1].

فكان حرص الجاحظ على تحديد المعارف وأجناسها من باب التحديد المعرفى لأصول البلاغة النقدية، ولذلك لم يكتف بموقف واحد يعبِّر عنها وإنما رجع إلى عدة آراء ومواقف، مدعمًا وجهة نظرة الملحة فى المعرفة والثقافات المتعددة المتشعبة. ففى نفس الرسالة يعرض مرة أخرى لأجناس المعارف بقوله: «وزعم آخرون أن المعارف ثمانية أجناس؛ واحد منها اختيار، وسبعة منها اضطرار؛ فخمسة منها دُرك بالحواس الخمس، ثم المعرفة بصدق الأخبار؛ كعلم القرى والأمصار والسِّيَر والآثار، ثم معرفة الإنسان إذا خاطب صاحبه أن يوجه بكلامه إليه وقاصد به نحوه»[2].

فهذا المحور المعرفى يُعَدُّ إطارًا مؤسسًا للمادة المدروسة؛ مادة البلاغة بأبعادها ومفاهيمها، فهذا الإطار هو الحاكم للمادة والمسيطر على مساحتها، وهيئاتها بأشكالها المتعددة، إنه النسق المعرفى الواجب دراسته وفحصه من كل جوانب الفحص والدرس، وذلك لأنَّ مفهوم النسق المعرفى فى الفكر الحديث يرتبط بالبحوث التى قدَّمتها دراسة الأُطر

---

(1) الجاحظ؛ **رسالة فى المسائل والجوابات فى المعرفة**، الجزء الرابع، ص51، وانظر حديثه عن باقى الأجناس فى صفحتى 51، 52.

(2) المرجع السابق، ص71.

الاجتماعية للمعرفة، وما انتهت إليه من تصورات للكشف عن تغيُّر أشكال المعرفة وعلاقاتها عبر العصور المختلفة.

وتأسيس هذا المفهوم فى بحث الظواهر الأدبية والبلاغية ضرورى لمتابعة التحولات التى تفرض على الباحث المعاصر اتخاذ موقف منهجى صحيح فى التعامل مع المادة التى يتقدم لدرسها، ومعرفة علاقاتها ببقية وحدات المنظومة التى تستمد منها مقولاتها[1].

(1) صلاح فضل؛ **بلاغة الخطاب وعلم النص**، عالم المعرفة، الكويت، ع164، أغسطس 1992م، ص12.

obeikandl.com

obeikandl.com

محصلات المحور الأول

obeikandl.com

obeikandl.com

إنَّ دراسة المحصلات لكل جزء من جزئيات البحث تُعَدُّ عملاً علميًّا مهمًّا؛ حيث تعمل المحصلة على التحليل والإضافة، بجانب جلاء الرؤى التى عرضت قبلها، فهى – إذن – مهمة بحثية لها ضرورتها القصوى فى الدرس العلمى، ولهذه الأهمية وضرورتها فإننا سنعرض لكل محور من محاور هذا العمل محصلاته الخاصة به، حسبما تقتضيه الحاجة البحثية.

ومحصلات (المحور الأول) ستُعرض فى شكل وحدات، تشكِّل كل وحدة رؤية استكشافية معينة.

الوحدة الأولى – الأصول وتكوين الفروع :

- 1 -

حرص الجاحظ حرصًا شديدًا على العودة الدائبة لأصول كل شىء يدرسه، وشكَّل هذا الحرص منهجًا فنيًّا معروفًا عنده، لأن الدراسة بدون معرفة منابعها ومواردها تُعَدُّ خراجًا، كما يُشير إلى ذلك فى رسائله، فالاتجاه لعرض المفاهيم البلاغية عنده فى شكل مباشر يعتبر إقصاء للمنهج العلمى الصحيح – وقد دأبت معظم الدراسات التى تتناول مفاهيم البلاغة وأبعادها على الاكتفاء بخطوات الحصر والجمع دونما ربط كل مفهوم بسياقاته وخبراته التى أنبتته، ولذلك يُعَدُّ الدرس النقدى – فى هذه الحالة – عن المجال العلمى السياقى الذى يؤدى إلى نتائج علمية – أيضًا – لها ثمارها اليافعة.

والمفاهيم البلاغية هى – فى المقام الأول – نتاج ثقافى معرفى، ومناقشتها بعيدًا عن هذا الارتباط الثقافى الذى أفرزها يُعَدُّ إقصاءً مقصودًا لها عن أصولها، بل لوجودها، فكل كلام أتيت على فرعه، ولم تخبر عن أصله فهو خداج لا غناء عنده، وواهن لا ثبات فيه[1].

---

(1) **رسالة فى المسائل والجوابات** – ضمن رسائل الجاحظ، الجزء الرابع، ص63.

فهذا الكلام حتَّم ضرورة التأصيل الذى يُظهر ملامح الفروع وأصول المفاهيم البلاغية ودوائرها المعرفية المتسعة المسافة والمساحة. ولا يقف الجاحظ وحده فى هذا القول التأصيلى، ولكنه وضع نظرية بحثية مهمة تبعها بعده (عبد القاهر الجرجانى)؛ حيث يُلح إلحاحًا شديدًا على وصل الفروع بالأصول ، وتجاوز العلم بالشىء مجملاً ، إلى العلم به فى تفصيل ووضوح – فيقول : «واعلم أنك لا تشفى العلة ولا تنتهى إلى ثلج اليقين ، حتى تتجاوز حد العلم بالشىء مجملاً، إلى العلم به مفصَّلاً، وحتى لا يقنعك إلا النظر فى زواياه والتغلغل فى مكامنه، وحتى تكون كمن تتبَّع الماء حتى عرف منبته، وانتهى فى البحث عن جوهر العود الذى يصنع فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى عروق الشجر الذى هو منه»[1].

-2-

فـ(عبد القاهر) يرسم أُسس الصلة العميقة بين الجذور والفروع، أو بين الإجمال والتفصيل، ووفق هذا المنهج الدقيق الذى شرحه عبد القاهر ومشى فيه فى ركاب أبى عثمان، فإن المفهوم البلاغى فى دراساتنا هذه لا يمكن معرفته، والوصول إلى أعماقه إلَّا من خلال التغلغل العميق فى أصوله؛ ونقصد بذلك مكامن التأصيل المعرفى من ثقافات متعددة، تداخلت بفعل العامل الزمنى، وكذلك بفعل العامل المكانى، الذى يؤصل لنحت المفهوم من خلال طبيعة المكان، وتأثيره على ألوان الناس ومشاربهم الثقافية التى تتشكَّل حسب النشاط المتعدد للإنسان فى هذا الحيز المعيشى.

(1) عبد القاهرة الجرجانى؛ **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، 1984م، ص260.

obeikandi.com

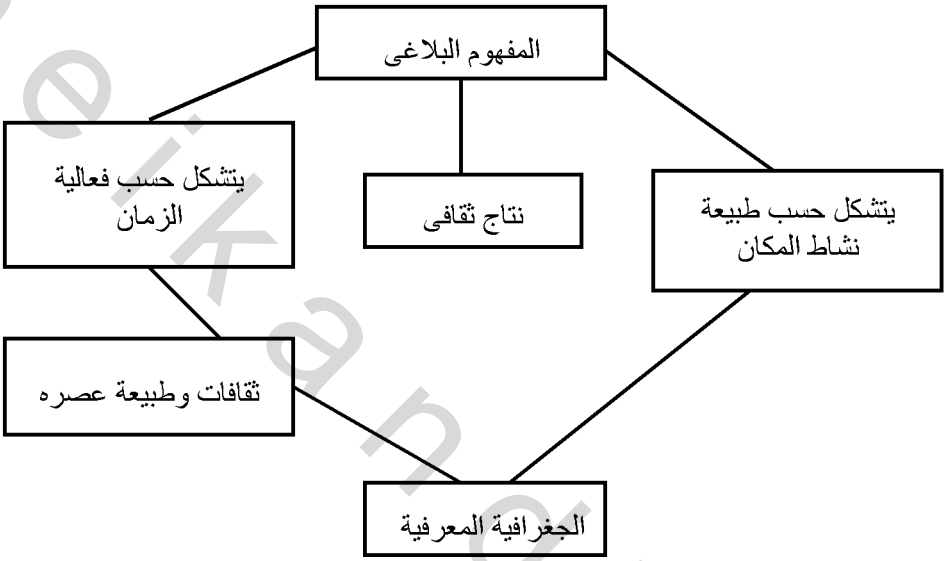

obeikandl.com

الوحدة الثانية – جغرافية المعرفة :

وبناء على رؤية عبد القاهر الجرجانى الذى دعا إلى نظرية الأصول والفروع، ومنابت العود وجوهره، تأتى هذه الوحدة الثانية، التى تدرس طبيعة المعرفة وارتباطها بالنشاط الإنسانى فى حيزه المكانى.. وإذا كانت الجغرافيا تدرس المكان وحدوده، فإن مفهوم جغرافية المعرفة يتصل بحركة المعرفة، وأنواعها فى عصور معينة، تتحدد بحدود مكانية لها أبعادها.

ونستطيع سحب مصطلح «جغرافية المعرفة» على عصر الجاحظ بعلومه و«ديناميته» المعرفية بالإضافة إلى المكان الخاص به وهو (البصرة) بملامحها وصفاتها، وحياتها الجغرافية، والعلمية. ولهذا فإن جغرافية المعرفة – هنا – ستتكون من هذه النقاط:

النقطة الأولى – حركية الموقع وإبداع الاتصال :

– 1 –

عُرفت البصرة على مدار تاريخها بأنها ميناء العرب، وبهذه المعرفة تأخذ تلك المدينة مكانتها وشهرتها الحضارية، وذلك لاتصالها العريق بالثقافات الواردة بتعددها، إلى جانب طبيعة المعرفية المتكونة بها – «فكانت البصرة ميناء العرب الكبير من أعظم ما تكون عليه القطع البحرية فى الدول العظمى، تبادل تجارة بلاد العرب من موانئ المحيط الهندى حتى الصين، ويغشاها أصناف من شعوب الشرف بآسيا وإفريقية»[1].

فالبصرة تمثِّل جغرافية المعرفة تمثيلاً قويًّا من حيث هى :

1 – ميناء مهم للعرب، ونافذة اتصالية لهم على الآخر، فهى أهم ميناء فى عصر الجاحظ.

2 – تُعَدُّ البصرة كميناء دليلاً قويًّا على صلات العرب بالثقافات الأخرى، فقد اتصلوا بأمم كثيرة، ووصلت ثقافات هذه الأمم عندهم؛ حتى أهل الصين أنفسهم، وهذا أمر يدعو إلى الوقوف على التأصيل المعرفى المتعدد عند تناول المفهوم البلاغى عند الجاحظ وعصره المميَّز.

---

(1) محمد كرد على؛ **أمراء البيان**، ص284.

3 – طبيعة الوجود البشرى واختلاف النشاط وفق هذا الوجود، فقد تغشى البصرة أصناف عديدة من الناس.

4 – من أهم الأجناس التى وُجِدَت بالبصرة أهل الهند؛ حيث كثُر عددهم فانتشروا فى كل مكان فيها، لقد كان لأهل الهند منزلة معروفة فى البصرة – «فالهند من أعظم الأسواق وأهم المراكز فى التجارة البحرية، فلا جرم كانت صلتها بهذا الإقليم (البصرة) صلة قوية»[1].

– 2 –

لقد تحققت الهيئة المتعددة والمكونة لجغرافية المعرفة داخل البصرة ذاتها، فالنشاط السكانى لا يمكن فصله بحالٍ من الأحوال عن النشاط الفكرى والأدبى بالطبع، فالنشاط اللغوى بكل أبعاده يُعَدُّ موازاة طبيعية للنشاط السكانى نفسه.

ومن المعروف أن الحضارات بأبعادها المختلفة تنتقل من أُمة لأخرى عن طريق الموانئ، فهى نوافذ مفتوحة على الآخر بكل مساحاتها، وميناء البصرة يُعتبر نافذة أساسية ومهمة للجلب الاقتصادى بأجناسه المختلفة.

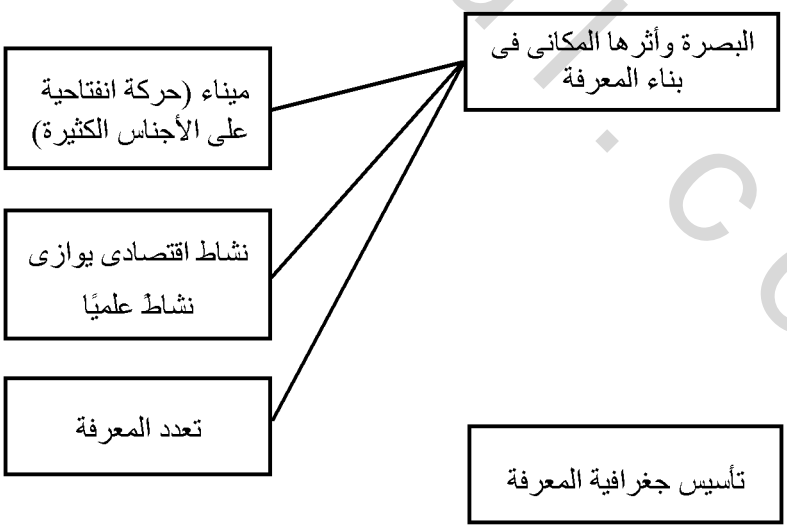

(1) طه الحاجرى؛ **الجاحظ**، ص23.

النقطة الثانية – اتساع جغرافية المعرفة :

– 1 –

أدَّى هذا المزيج العجيب من الأجناس المتعددة داخل إقليم البصرة (ميناء العرب) إلى وجود مزيج عجيب موازٍ له من المعارف والعلوم، وبذلك امتدت جغرافية المعرفة امتدادًا بعيدًا وعميقًا فى ذات الوقت، وعندما تمتزج الثقافة وتمتد يظهر التصارع، ويبدو السباق المعرفى داخل الامتزاج الجغرافى للأجناس فى حيز مكانى واحد، فلا يُسمع الصوت الواحد، وبالتالى لا يكون المفهوم الفردى هو المسيطر، فالاعتماد – إذن – على رؤية فردية لا يمثِّل انعكاسًا لجغرافية المعرفة، فالتخطيط – عندئذٍ – سينطلق من خلال التعددية، وهذا ما نراه فى البصرة حيث «كان التخطيط العلمى يتم فى البصرة فى أوساط مختلفة، متعارضة لكل اتجاهه ولكل ماضيه، وأساسه الذى يقوم عليه»[1].

فملامح التخطيط العلمى (للبصرة) تبدو فى خطوط هى مزيج من التصارع والتعارض والتداخل العرقى للأجناس المختلفة.

ولتميز هذا الإقليم بجغرافيته المعرفية، فقد سبق غيره من الأقاليم الأخرى من جهات التكوين المعرفى الذى يتمثل فى:

1 – سبق أهل البصرة إلى معرفة المنطق والاتصال بالفلسفات الأخرى – «وسبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر فى البصرة قبل ظهورها فى غيرها»[2].

وبالطبع فإن هذه الميزة – التى اختُصت بها البصرة عن غيرها، من جهة التكوين الفلسفى المتعدد – كان لها تأثيرها المكوِّن للجغرافية الثقافية، الأمر الذى ينعكس – بدوره – على صنع

---

(1) أحمد كمال زكى؛ **الحياة الأدبية فى البصرة**، ص107.

(2) هذا القول أشار إليه (دى بور) فى كتاب «**تاريخ الفلسفة فى الإسلام**»، ونقلناه عن كتاب «**رواية اللغة**»، ص66.

obeikandl.com

ونحت المعارف والمفاهيم. ولذا جاء الحديث عن البلاغة من زواياه المتعددة المشارب: الفارسية، والهندية، واليونانية، والرومية، وغيرها.

2 – وبجانب السبق الفلسفى وانتشار المنطق فى هذا الإقليم تأتى المجالس العلمية المتعددة؛ حيث ذهب كثير من العلماء لعقد حلقات التفسير والمدارسة للقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف – «فقد كان المحدثون يعنون بتفسير الحديث إلى جانب المعرفة، بالمتون والأسانيد، فكانت اللغة تأخذ مكانتها فى مجالسهم»[1].

- 2 -

فوجود حلقات درس وتفسير الحديث النبوى الشريف لم تكن وحدها، وإنما تداخلت الحلقات الخاصة – أيضًا – بتفسير القرآن الكريم ومجال التفسير والمعرفة بالمتون، وكذلك الأسانيد من الملامح التى شكَّلت طبيعة جغرافية المعرفة.

ودرس البلاغة لا يبعُد عن هذا الميدان، لقد نشأت البلاغة داخل هذا الدرس نفسه، لأنها أهم أُسس التفسير القرآنى أو تفسير الحديث النبوى الشريف.

3 – ويأتى دور المساجد ووظائفها المعرفية؛ فهى ميدان الدرس، وميدان الخطابة «التى نشأت البلاغة فى أحضانها»، ولهذا رأينا – فى المحور السابق – إشارات الجاحظ المتعددة إلى معرفية المساجد، ورأينا مصطلحًا خاصًّا بمعرفية المسجد، وهذا المصطلح هو (المسجديون)، وصنع هؤلاء المسجديون معرفة متعددة، من خلال حلقات الدرس، ومن عناية الجاحظ الملحة، بهذا الميدان المعرفى، فقد أشار إلى أول من اتخذ مسجد البصرة حلقة للعلم بقوله: «وقد كان جعفر بن الحسن أول من اتخذ مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن فى مسجد البصرة»[2].

ويعنى هذا القول الذى أورده الجاحظ فى «البيان والتبيين» أن ساحات المساجد كانت ميادين للعلوم المتعددة المشارب، كما يعنى – أيضًا – التسابق إلى معرفة أوائل العلماء الذين

---

(1) عبد الحميد الشلقانى؛ **رواية اللغة**، ص67.

(2) **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص267.

تبوءوا مقامهم فى مسجد البصرة. ومن هنا نرى مكانة المسجد العلمية باعتباره جامعة شاملة للمعارف والعلوم.

4 – وبجانب مجالس وحلقات العلم المختلفة نرى ظهور مادة أخرى تُساهم مساهمتها البارزة فى رسم وتخطيط طبيعة الجغرافية المعرفية؛ وهى مادة (القصص) المميزة بطابعها الفنى الخاص، العاكس لطبيعة تكوين مادتها الأدبية، وكان هذا القصص المروى فى البصرة يجد جمهورًا كبيرًا يتلقاه. ولم يقتصر هذا الفن على عامة المتلقين، بل كان ميدانًا كبيرًا لاهتمامات العلماء والفقهاء – ولهذا يقول الجاحظ عن أشهر قصَّاصى البصرة، وجلوس عامة الفقهاء إليهم: «وقد كان عبد الصمد بن الفضل، وأبو العباسى القاسم بن يحيى، وعامة قُصَّاص البصرة، وهم أخطب من الخطباء يجلس إليهم عامة الفقهاء»[1].

وقول الجاحظ هذا ينبِّه إلى وجود ظواهر فنية مهمة هى:

أ – **انتشار القُصَّاص فى البصرة**؛ ويعنى ذلك رسوخ هذا الفن التعبيرى الذى يتميز بطبيعة مادته العلمية الخصبة الطويلة، فلا تقف عند حد الشاهد البلاغى الجزئى، وإنما هى مادة نسيجها الفنى متعدد، يُحاك بدقة متناهية، مما يحتاج إلى صناعة أدبية ماهرة.

ب – **الموازنة بين القُصَّاص والخطباء**؛ وتنتج هذه الموازنة تفضيلاً للقُصَّاص، فهم أخطب من الخطباء.. واستخدام الجاحظ لأفعل التفضيل فى إشارته هذه يُعَدُّ حُكمًا قائمًا على ممارسة نقدية جاءت بعد مشاهدة عملية، فمن الصعب أن يلجأ أبو عثمان إلى استخدام صيغة التفضيل إلَّا إذا كانت تستحق الوجود فى هذا السياق فعلاً. وإذا كانت البلاغة نشأت فى ميدان الخطابة، ووضعت لها مقاييس فنية انطلاقًا من ذلك؛ فإن هذا الفن (القصصى) – الذى هو أشد ميدانًا من الخطابة – يحتاج إلى طبيعة بلاغية أكثر فنية من مجرد الاعتماد على الشاهد الجزئى وحده.

---

(1) **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص165.

إنَّ القُصَّاص بلاغيون بدرجات تفضيلية أعلى، وبذلك السبق نرى الربط الوثيق بين فن (السرد) وبين (التقنية البلاغية)؛ وهذا أمر اهتمت به الدراسات النقدية الحديثة؛ فكتاب **Modern Rhetoric** يُشير إلى العناية بالسردية **Narration** واعتبارها عنصرًا أساسيًا من عناصر التكوين البلاغى الجديد[1].

- 3 -

لقد ازدحمت البصرة بصنوف العلماء والخطباء والقَصَّاصين؛ فتصارعت المفاهيم، وتداخلت أبعادها، الأمر الذى يجعل الأصول ضرورة معرفية لتفهم الفروع، كما يجعل هناك ميادين للمنافسة، وبروز صيغ التفضيل القائمة على المتابعة، كل ذلك صهر أهل البصرة، حيث كان لهم حسًّا ناقدًا - يقول الجاحظ فى ذلك: «وسمعت فى خطبة الخشنى يقول: كان أهل البصرة لا يشكُّون إنه لم يكن بالبصرة رجل أعقل من عبيد الله بن الحسن وعبيد الله بن سالم»[2].

ويلمِّح هذا القول أن لأهل البصرة دورهم الكبير فى الحُكم على علمائها، كما يُشير إلى اهتمامهم البالغ بالعلم ومعارفه المتعددة، وكذلك اختلافهم الدائب إلى العلماء، وإلى العناية بوضعهم فى مراتب معينة كلٌّ حسب علمه ومكانته الخاصة، فوضعوا بذلك طبقات العلماء، والتى تأتى مع طبيعة منهج النقد الأدبى.

وهذا الاهتمام يلفت النظر إلى طبيعة الجمهور المتلقى للمادة العلمية، وكيفية تلقيه لها، فنحن أمام جمهور له وعيه العلمى، وله معرفته الجادة بكل عالِم من العلماء، وبكل صنف من المعرفة، وكل هذه أمور تؤثر فى الطرق الفنية لنحت أى مفهوم.

وبجانب الحديث عن العلم والعلماء، وإظهار التفاعل بينهم وبين الناس نرى ثمار المعرفة

---

(1) يُنظر: **Broohers and warren, Modern Rhetoruc New York, 1972, p13.**
وينظر العنوان الخاص باسم **Narration** ؛ صفحة 187 وما بعدها.
(2) الجاحظ؛ **البيان والتبيين**، الجزء الأول، ص275.

obeikandl.com

والعلم تظهر يانعة فى إنتاج الكتب وانتشارها، والتى ظهرت فى البصرة؛ مثل: (معجم العين، والكتاب – لسيبويه –، بجانب الكتب الأخرى وكلها تشير إلى سبق علمى»[1].

فانتشار الكتب المتنوعة الاتجاهات فى هذا الميدان من الأمور التى تصنع ملامح المصطلحات، وتدعو إلى دراسة المفاهيم فى إطارٍ من الاستقرار العلمى الكبير، بل فى مساحة ثقافية عميقة الازدهار، فالكتاب وسيلة الاتصال بين الماضى والحاضر، وعامل الانتشار المعرفى بكل وسائله الممكنة.

ولهذه الأهمية المعرفية للكتاب؛ فإن الجاحظ وضع خطوطًا قوية تُظهر إستراتيجية الكتاب فى الدرس، والتحصيل، وفى الاطِّلاع على عقول الآخرين – يقول: «ولم أزل – أبقاك الله – بالموضوع الذى عرفت من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها، ومعلوم أن طول دراستها إنما هى تصفُّح عقول العالمين، والعلم بأخلاق النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، وذوى الحكمة من الماضيين والباقيين من جميع الأمم، وكتب أهل الملل»[2].

وهذا القول يؤكد طبيعة وجود المعرفة المتسعة فى عصر الجاحظ، ويرسم حركية انتشار الكتاب فى البصرة، فتمتد الجغرافية المعرفية شاملة عناصر تأكيد المعارف، والاطِّلاع على عقول وثقافات الآخرين، فيضاف إلى تعدد الجنسيات فى هذا المكان تعدُّدٌ فى الثقافات المحفوظة فى الكتب.

ويدعو الجاحظ فى قوله هذا إلى ترسيخ المعرفة بنظرية الدأب والإطالة للتلقى، من الإعادة والاستيعاب، وتلك دعوة لتعميق الرؤية، فلا تنبع من مجرد السطح الأفقى، والذى لا يبعُد عمقه عن خدشٍ صغير فى سطح المعرفة السميك، فاختياراته – إذن – جاءت وفق هذا المنهج؛ المنهج الاستقرائى، الذى يعمد إلى الوصول إلى البنية العميقة لأصول المعرفة.

---

(1) عبد الحميد الشلقانى؛ **رواية اللغة**، ص64.

(2) الجاحظ؛ **رسالة فى المعاد والمعاش** – ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الرابع، ص73.

- 4 -

والمفاهيم التى اختارها وبثها فى موسوعته «البيان والتبيين» وفى بعض أعماله الأخرى جاءت حسب هذا المنهج الداعى إليه من قراءة عقول الآخرين قراءة لها أصولها، حيث التأنى الذى من خلاله تحدُث النتائج.

فالاختيارات الواردة فى باب البلاغة لم تأت عفو الخاطر، ولم تنظر هكذا إلَّا من خلال رؤية سابقة نظمتها نَظْمًا دقيقًا محسوبًا فيها كل شىء، إنها رؤية معرفية منتظمة، ونرى من خلال انتظامها منهج صنع الكتاب الذى هو حلقة الصلة بين الأجيال والأجناس - «فلولا الكتاب لاختلت أخبار الماضيين وانقطعت آثار الغائبين، وإنما هو اللسان الشاهد لك، والقلم للغائب عنك، وللماضى قبلك والغابر بعدك، فصار نفعه أعم، والدواوين إليه أفقر»[1].

فالكتاب آلة التوازن الضرورية؛ من حيث المادة المعرفية الواصلة بين الأجيال، الأمر الذى يساهم بقوة فى إنتاج الآراء العلمية وصنع المفاهيم والمصطلحات المنشأة على أصول قوية راسخة رسوخًا ثابتًا، فالكتاب هو القطب الذى عليه مدار علم ما فى العالم وآداب الملوك»[2].

ويُعَدُّ الكتاب – كما رأى الجاحظ - أهم أداة للمعرفة يتعامل معها المتلقى؛ فهى أبلغ من التلاقى، حيث الانفراد والتحدث إليها بكل أبعاد العقل، ومناقشته فى هدوء دونما عصبية وفتن، ولذا فقد ألحَّ الجاحظ على ضرورة تأكيد الصلة الذاتية للكتاب قائلاً: «ولن يُصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره، واعلم أن قراءة الكتب أبلغ فى إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقى يقوى التصنع، ويكثُر التظالم، وتفرط النصرة، وتنبعث الحمية»[3].

---

(1) الجاحظ؛ **رسالة فى المعلمين** - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثالث، ص27.

(2) الجاحظ؛ **فى رسالة المودة والخلطة** - ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، الجزء الرابع، ص204.

(3) الجاحظ؛ **رسالة فى الجوابات واستحقاق الإمامة**، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، الجزء الرابع، ص296.

فالكتاب عالم ليس لديه عصبية معينة تضيع معها فائدة التحصيل، وليس عنده من الحمية ما يمنع وصول الحقيقة وأخذها صافية بعيدة عن الأغراض والميول؛ فالمادة المعروضة فيه تَنُم عن منهج مستوى استواءً لا غرض فيه.. وعرض مادة البلاغة عنده جاء من خلال اتِّباع مثل هذه الرؤية التى تحققها بعد ممارسة قرائية مستمرة.

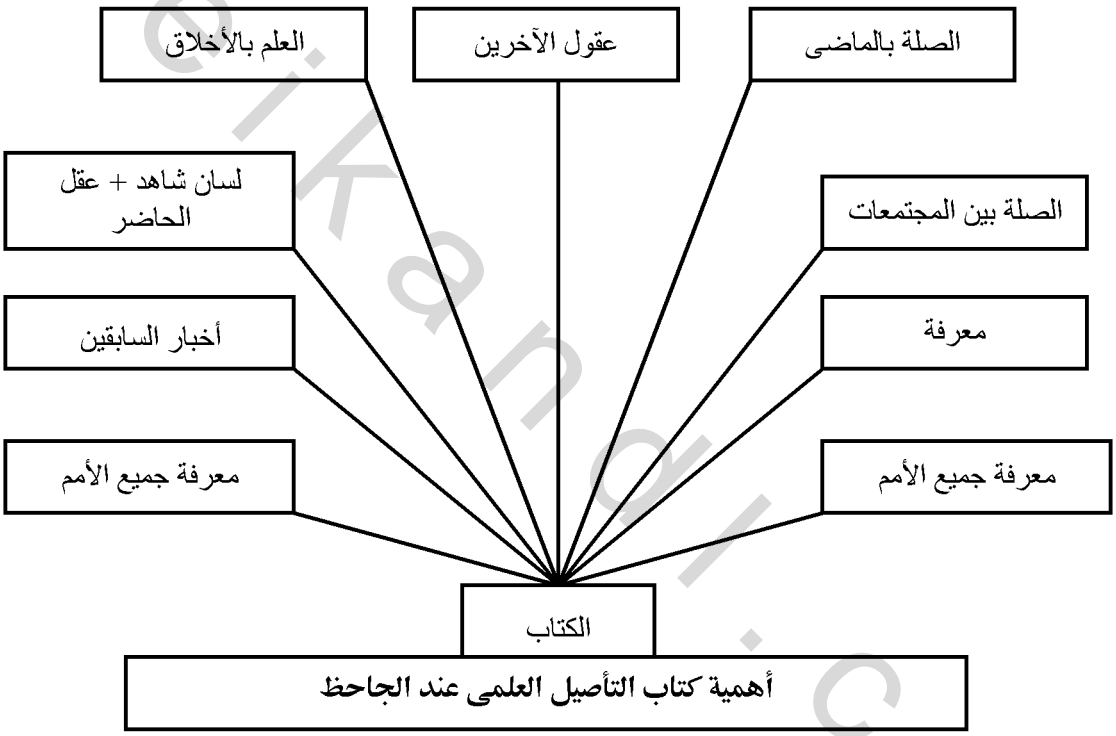

obeikandi.com

الوحدة الثالثة – دينامية المعرفة وشخصية الجاحظ :

هذه الوحدة نتاج ما عرض فى المحور الأول حول شخصية الجاحظ ذاتها؛ فهى شخصية موسوعية تَنُم وتتسم بالدينامية المعرفية، ولهذا كانت قراءتها قراءة نقدية أخرى تُعَدُّ من أهم الأمور التى تؤدى إلى معرفة المفهوم البلاغة عنده، بل أن محاولة الوصول لهذا المفهوم بعيدًا عن معرفة طبيعة شخصية الجاحظ، وثقافاتها، يُعَدُّ أمرًا خداجًا ورؤية بعيدة عن أصولها الواجبة، وعن متابعتها الحقة، ولهذا كانت ضرورة تناول ما نسميه بـ«دينامية الجاحظ المعرفية»، وسوف نستعين بإشارة ثابت بن قرة – مرة أخرى – والخاصة بوصف جوانب هذه الدينامية المتميزة عند الجاحظ (فهو – كما قال ثابت – خطيب المسلمين + شيخ المتكلمين + مررة المتقدمين + إنْ تكلم حكى سحبان البلاغة + وإنْ نظر ضارع النظام فى الجدل + شيخ الأدب + لسان العرب + كتبه رياض زاهرة + رسائله أفنان مثمرة).

وشرح هذه الصفات يعتبر أمرًا علميًّا فى هذا الموقع الذى يُعْنَى بدراسة المحصلات المستنتجة من عرض المحور الأول؛ ويأتى هذا الشرح فى تلك النقاط:

النقطة الأولى – التفوق الخطابى :

– 1 –

لقد أشار (ثابت بن قرة) إلى تأصيل صفة الخطابة لدى الجاحظ حتى حاز سبقها بتفرُّد نهائى، فلُقِّب بـ(خطيب المسلمين)، وقد اعتمد هذا التعبير الوصفى على تركيب إضافى يفيد التفرُّد المشار إليها...

حيث أُضيفت كلمة (خطيب)، وهى مشبهة، إلى (المسلمين) الجمع الدال على الكلية التفردية لهذا الفن القولى على مستوى المسلمين جميعه؛ فى عصره، وفى غير عصره.

وإذا كانت البلاغة – فى عصر الجاحظ – هى الخطابة ذاتها، أو فن القول الشهوى القائم على دينامية التعبير بين القائل (الخطيب)، والجمهور (المتلقى)؛ جمهور السامعين، المجيدين

لحُسن الاستماع، والفهم، والتفاعل لِمَا يُلقى من قول، ومعرفة مكامن القوة والضعف فى الخطيب (البليغ)؛ فإن تفوق الجاحظ ووصوله إلى درجة التفرد فى مجال الخطابة يجعلنا نقف بالدراسة المتأنية لطبيعة اختياراته، والتى نتجت من ممارسة التفوق بنفسه.

- 2 -

وحصول الجاحظ على لقب (خطيب المسلمين) يُبرهن على درجة التداخل المعرفى الذى أتقنه بخبراته الموسوعة، الأمر الذى يدخل - بالضرورة - فى منهجه الاختيارى، كما يدخل - كذلك - فى منهجية العرض والمناقشة، فالترتيب لعرض المادة العلمية سيأتى من الممارسة والخبرة الميدانية، لا من جهة الرؤية النظرية وحسب. ولكننا سنرى ثنائية تتكون من «الرؤية والتطبيق» هذا من جهة.. ومن جهة أخرى سنرى مادة خطابية تعرض - بالضرورة - فى أعماله، وهذا أمر عنى به الجاحظ عناية دقيقة، حيث عرض خطبًا لأشهر الخطباء فى عصور متعددة، وفى أثناء عرضه يركِّز على درجات الخطباء وثقافاتهم، وهو فى ذلك يحقق المنهج السائد فى عصره؛ وهو منهج الطبقات، والتى مهرها - بقوة - ابن سلام الجمحى فى كتابه عن طبقات فحول الشعراء.

وليس هذا وحده هو صنيع الجاحظ مع الخطباء ودرجاتهم، بل إنه يُحصى الخطباء الشعراء والخطباء العلماء، وكل هذه الاختيارات تُرى مبثوثة فى أعمال الجاحظ، وخاصة «البيان والتبيين».

وهذا العرض الذى يهتم به أبو عثمان يحمل فى طياته الداخلية أهمية معرفية مقصودة تُضاف إلى عناية الجاحظ بطرح نظرية خاصة يرسمها بدقة فى كل ما يُعرض له، كما يحمل - أيضًا - رغبة بعيدة ومهدفة من التثقيف الخطابى نفسه.

وبهذا الصنيع المقصود يضع الجاحظ بين يدى المتلقى مواد بلاغية (خطابية) متعددة، تُعينه على طبيعة فهم أمور البلاغة.

إنَّ الخطب ودرجاتها مع أصحابها جزء مهم من دائرة معرفية يرسم مساحتها الجاحظ

بدقة خفية، لا يُحيط بها إنسان إلَّا بالبحث الدائب فى أعماله كلها، ولذا وُصِفَ منهج الجاحظ لدى بعض الدارسين بالتفكك وعدم التماسك.

النقطة الثانية: الجاحظ ودرجاته البلاغية:

- 1 -

والنقطة الثانية هذه تتصل بصفات الجاحظ الموسوعية؛ حيث تختص بالدرجة البلاغية العليا التى حازها الجاحظ، فوُصِفَ بمحاكة سحبان وائل فى بلاغته، وذلك الوصف ارتبط بالجانب التعبيرى؛ ولاسيما القولى منه.

وتفوق الجاحظ فى بلاغة الخطاب القولى (الشفوى) أمر ينضم - بالضرورة - إلى الصفة السابقة، والتى أُسبغت عليه، وبذلك تجتمع عنده صفتا التفوق الخطابى (البلاغى) والتفرد فى ميدانه... ولهذا الاقتران (الخطابى والبلاغى) أثره الدافع لاختيارات الرؤى البلاغية المتعددة عند أجناس متداخلة.

فالإحاطة بكل فنون القول الشفوى تبدو من خلال هذا الوصف الثنائى (الخطابة + البلاغة = خطيب المسلمين + محاكة سحبان وائل).

ولفنون القول الشعرى أصوله ومقاييسه التى تضمن إصابة المعنى، لأن الإصابة – هنا – تُعَدُّ موقفًا ثقافيًا له دوافعه المقصدية، ولذلك كان التدريب الجاد على اللَّسْن، وبراعة القول، والارتجال الذى يأتى من خبرة تعبيرية، ليست وليدة الموقف، أو المصادفة، إنها موقف يدفعه الانتماء الاعتزالى، والذى كان الجاحظ أحد أعلامه المؤسسين، (فالجاحظية) المشار إليه، فرقة لها أصولها المعرفية، ولها أدواتها التعبيرية القائمة على الإجادة الخطابية، وبراعة القول البليغ.

وتأتى المناظرات التى ملأت كل ساحات الدرس فى عصر الجاحظ، وهى – بحق – ميدان البيان (البلاغة) بكل عناصرها، وهى بالتالى ميدان الخطابة، وحُسن القول، وحُجَّة الإقناع - «وقد كان المعتزلة فرسان الحلبة فى المناظرات والعقائد»[1].

---

(1) يُنظر: محمد أبو زهرة؛ **تاريخ الجدل**، ص214.

ومن أهم صفات تلك المناظرات: أنها كانت ارتجالية فى أغلبها؛ حيث لا يُعِدُّ لها إعدادًا مسبقًا إلَّا نادرًا - «فقد كثُرت مجالس مناظراتهم، فقد تناظروا بين أيدى الأمراء، وفى المساجد، وفى كل مكان يصلُح للجدل والمناظرة، ولكن المأثور من المناظرات قليل بالنسبة لِمَا كان، السبب فى ذلك أن أكثر تلك المناظرات كان ارتجاليًّا»[1].

والارتجال الخطابى يحتاج إلى ثنائية التمكن فى الخطابة والقول (البلاغة)؛حيث الاستعداد للمناظرة، والتجهيز فى أى وقت يستدعى ذلك، فليس هناك إعداد مسبق لها، فيمثل الخطابة آلة القول من: الصوت، والقوة، والوضوح، والهئة، وكل طقوس التعبير الشكلية من: رباطة الجأش، وقوة الأداء، وعدم التوقف؛ أى المواصلة، والاستمرارية الدالة بكل أداء على امتلاك المحصول البلاغى الخصب.

-2-

أما البلاغة: فهى المادة المسموعة نفسها بكل أبعادها التعبيرية، والتى صُبَت فى كل خطاب، يوصلها القائل بكل أبعادها وتكوينها (الأسلوبى الخاص) إلى المتلقى، حيث الوظيفة الإقناعية، والتى فُرضت فى ميدان المناظرات، والتى تتوقف بحالٍ من الأحوال، فعملية الإقناع تفرض تأصيلاً لفن القول الشفاهى.

فلهذه الميزة البلاغية التى عُرف بها الجاحظ تأثير قوى من حيث الدوافع الخاصة لاختيارات المفاهيم البلاغية ذاتها، فالمفاهيم البلاغية – إذن - انتقاء لابد له من التناسب التام مع ثقافاته هذه، فيأتى الاختيار من جهة المادة المعبرة ومن جهة الترتيب نفسه الذى يصنع نظامًا بلاغيًّا، يخضع لمنهج مقصود عند الجاحظ نفسه، لقد نظم اختياراته وفق منهج هندسى له أصوله الثقافية.

(1) المرجع السابق؛ ص214.

obeikandl.com

النقطة الثالثة – ثقافة المناظرة وعلم الكلام :

- 1 -

تنضم هذه النقطة – بأهميتها – للنقطتين السابقتين «الخطابة والبلاغة»، فإذا ناظر الجاحظ ضارع (النظام) أستاذه فى الجدل والكلام – «ولقد تربَّى الجاحظ على يد أستاذه (النظام) فأخرجه لسنًا جدلاً، يعرف كيف يحاور، ويداور، وكيف يستعين بالمنطق الصحيح، وكيف يستعين بالمنطق القيم ليدعِّم رأيه، وينصر فكرته»[1].

واختيار شخصية (النظام) عند الحديث عن جدل الجاحظ ومقدرته الكلامية أمرٌ له هدف مقصود، فـ(النظام) – كما أشرنا – أستاذه البارع فى هذا الميدان، الذى حازه بجهده الكلامى المعروف، حيث ملأ البصرة بعلمه الجدلى.

وللجدل أصوله وثقافاته، ووظائفه «فالغرض منه إلزام الخصم، والتغلب عليه فى مقام الاستدلال»[2]. ووصول الجاحظ إلى البراعة التامة فى هذا الميدان ومضارعته لـ(لنظام) أستاذه، وربما فاقه وظهر عليه أمرٌ يوسع ميدان الحديث البلاغى، ويجعل اختياراته فى كل ميدان لا تؤخذ بالشكل الأولى لها، حيث النظرة السطحية القائمة على الشكل الانطباعى بادى الأمر.

- 2 -

والمناظرات الجدلية تُظهر الخلافات الفكرية بين العلماء ورجال الفكر، ومن هنا كانت العناية الفائقة بهذه المناظرات الجدلية من قِبَل رجال العلم[3]. وقد أُطلق على الجدل من قديم (أدب المناظرات) [4] ؛ حيث الصراعات الدائرة بين أصحاب المذاهب الفكرية. إنَّ المناظرات

---

(1) شوقى ضيف؛ **الفن ومذاهبه فى النثر العربى**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، 1971م، ص173.

(2) محمد أبو زهرة؛ **تاريخ الجدل**، ص5.

(3) المرجع السابق؛ ص6.

(4) عبد الرحمن بن خلدون؛ **المقدمة**، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ص462.

التى أجادها أبو عثمان الجاحظ على يد أستاذه (النظام)، هى أداة من الأدوات الاستظهارية، تقوم معتمدة على قوة البيانات الدافعة، فهى – إذن – آلة مهمة من آلات القول والدفاع عن العقيدة، وهذا الدفاع العقائدى مهمة أساسية من مهام المعتزلة، ولهذا الأمر الدفاعى العقائدى فإن الخلفاء شجَّعوا هذا اللون القولى القائم على الحُجَّة الإقناعية – «فقد عمل خلفاء بنى العباس على تشجيع الحركة العملية، وتقريب العلماء، وإدنائهم لهم، وذلك التشجيع قد تبعه تشجيع المناظرات، إذ ليست إلَّا صورة لقوة المحركات العملية، واختلاف النفوس فى المنازع، واختلاف العقول فى المسالك، فعُقدت لها المجالس فى قصور الخلفاء والأمراء وفى المساجد والنوادى»[1] – **ومن خلال هذا القول نرى هذه الأمور :**

1 – ارتباط تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء بتشجيع المناظرات، وهذا الارتباط يدل على طبيعة المناظرات وعلاقاتها الخاصة بقوة القول، وبالتالى بطبيعة التكوين البلاغى.

2 – قوة المناظرات تُعَدُّ صورة واقعية انعكاسية لقوة المحركات العلمية، فعندما يوصف الجاحظ بقوته فى المناظرة، ومضاهاته التامة لأهم أعلامها (النظام)، فإنما يوصف باحتوائه الذكى التام للمحركات العلمية.

3 – احتواء الجاحظ – بناءً على ذلك – كل المشارب والاختلافات المتعددة، والتى حدثت فى عصره، فالمناظرات إظهار لاختلاف النفوس فى ميولها وأهوائها، وهذا أمر يتطلب – بالتالى – استيعابًا فسيحًا لكل الميول والأهواء... ومن هنا كانت خصوبة موضوعات المناظرات التى امتدت امتدادًا شاسعًا وكانت حاجتها الشديدة إلى طبيعة قولية تتناسب مع هذه الصفات. ومن هنا – أيضًا – كانت أصول التكوين البلاغى، والتى تؤسس على أصول ومقاييس مستمدة من المناظرات وصفاتها، فالبلاغة أداة المناظرات وآلة إقناعها، ولهذا كان من الخلفاء من يذكِّى أُوراها، ومنهم من يعمل – جاهدًا – على المشاركة فى مضمار صراعها.

وقد كان المأمون من أهم المشاركين فى مضمارها؛ حيث ساهم مساهمة فعَّالة فى حركتها وانتعاشها.

---

(1) محمد أبو زهرة؛ نفسه، ص238.

النقطة الرابعة – الجاحظ وثنائية الجدل والكلام :

– 1 –

تنضم هذه النقطة بطبيعتها إلى النقاط السابقة، من حيث مكونات الدينامية المعرفية لشخصية الجاحظ ذاتها، باعتبارها موسوعة (أبستمولوجية)؛ لها تأثيرها فى عملية الاختبارات والتنظيم للمفهوم البلاغى. لقد لقبه ثابت بن قرة (مرة المتكلمين)، ويقصد هنا تزعمه لعلماء الكلام بكل اتجاهاتهم، وثقافاتهم. ولقد أتقن الجاحظ هذا العلم، ورسخ فيه حتى عُدَّ مدرته. وموضوع علم الكلام الذى تزعمه الجاحظ بجانب الأمور المعرفية هو ميدان تأييد العقيدة والدفاع عن الرأى[1].

وبالطبع فإن الجاحظ حريص حرصًا بعيدًا على إظهار الرأى، وعرضه لك بأبعاده الإقناعية؛ وهذا الأمر يُعَدُّ ميدانًا ممتدًا – بالطبع – مع ميدان الجدل الذى حاز زعامته كذلك وضارع، بل وسابق فيه شيخه (النظام). وإذا علمنا موضوع علم الكلام – كما يُشير إليه ابن خلدون – وهو الخصام والتناظر، والاستدلال بالعقل، زيادة إلى النقل[2]. فوصف الجاحظ – إذن – بزعامة المتكلمين، واقتداره الخاص فى ميدانه لدرجة التفوق فيه ليس إلَّا من قبيل الإجادة التناظرية، التى تحتاج إلى (دينامية) معرفية موسوعية، فقد عَرِفَ الجاحظ كيف يكوِّنها تكوينًا اعتمد فيه على أصول هندسية دقيقة، تظهر أثارها من خلال طبيعة تناوله ودرسه للأمور من زواياها الاستقصائية التامة.

– 2 –

لقد تبوء الجاحظ مكانه الطبيعى للزعامة الكلامية من خلال طبيعة علم الكلام وموضوعاته – «أى من خلال درس العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ، من

(1) كمال اليازجى؛ **معالم الفكر العربى**، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة، 1974م، ص75.

(2) ابن خلدون؛ **المقدمة**، ص462.

حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية»[1].

والطبيعة الكلامية لها آلياتها التى تحققها مثل الخطابة القولية، ومكانتها ثم تأثيرها الإبلاغى القائم على أصول مفروضة يلح عليها إلحاحًا شديدًا، وبجانب هذا فإن ميادين التعبير البلاغى تؤصل تأصيلاً له إمكانات مفروضة كذلك. ومن هنا كانت المفاهيم البلاغية المنتقاة، والمنتظمة على أصول علمية معينة.

النقطة الخامسة – الجاحظ والتفوق الميدانى :

- 1 -

وإذا كانت صفتا «الخطابة والبلاغة» تعبِّران عن التمكن الشفوى وطبيعته؛ حيث ميادين البلاغة القولية، والتى هى أهم ما يعنى به الجاحظ، وذلك من جهة الإقناع الخطابى، فإن الوصف الآخر للجاحظ؛ والذى يتواتر مع الأوصاف الأخرى السابقة، تكوِّن الوحدات المتماسكة المكونة للأصول المعرفية عنده. لقد وصفه ثابت بن قرة بأنه شيخ الأدب.. واعتمد فى هذا الوصف على فنية الإضافة؛ وذلك بنسب كلمة شيخ إلى الأدب (شيخ الأدب)، فيحدث الوصف التفردى المقصود، وذلك بوضع الجاحظ على قمة الإجادة التعبيرية بأنواعها، والتى تمتد من الميادين الشفهية والكتابية – «فالجاحظ يطالعك من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع، ويعلمك فى سهولة ويسر لا يشق عليك، يُدخل فى نفسك مدخل صدق، ويستهويك وأنت لا تدرى كيف أخذت»[2].

إننا نرى فى هذا القول حرص الجاحظ على التفنن الأدبى القائم على خصائص إبداعية قصدها بهدف السيطرة السحرية على المتلقى، فيؤخذ به أخذًا شديدًا. ومن هنا يأتى الالتقاء والتساوى مع الهدف البلاغى، وكذلك الخطابى؛ فالخطابة لها سيطرتها على نفس المتلقى من خلال الأبعاد والأواصل الفنية والبلاغة لها سيطرتها – كذلك – باستخدام آلياتها المفروضة،

(1) المرجع السابق؛ ص466.
(2) محمد كرد على؛ **أمراء البيان**، الطبعة الثالثة، 1969م.

والأدب له سيطرته الأخاذ. وقد فطن الجاحظ إلى هذه السيطرة ووظائفها الإقناعية، فوظفت فنونه الأدبية مع الفنون الخطابية والبلاغية للأمور العقائدية ومجالها المتعدد. ومن هنا ترتبط الوظيفة الأدبية مع الوظيفة الجدلية التناظرية؛ فتتسع المسافات، وتتعدد الآليات بأنواعها الكثيرة.

- 2 -

فالبراعة الأدبية عند الجاحظ هى – إذن – براعة وظائفية، وبجانب ذلك فهى براعة معرفية، ثقلتها سليقة وفطنة، وعمق رؤية؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فقد فطن الجاحظ، وهو الدارس لفنية الحديث النبوى الشريف، إلى التأثير البيانى فى النفوس، وفى السيطرة عليها سيطرة السحر على الإنسان، وقد أشار الحديث الشريف إلى هذا التأثير بقوله: «**إنَّ من البيان لسحرًا، وإنَّ من الشِّعر لحكمه**». ولهذا عنى الجاحظ نفسه بأن يكون أدبه ينبعث البهاء فيه – «من كون مادة الجمال فيه سيَّالة برَّاقة نصَّاعة تنشر السرور فى الروح»[1].

والجاحظ لا يفصل مطلقًا بين النظر والتطبيق، فنظرية المعانى المطروحة فى الطريق، حيث يلم بها العربى والعجمى، والبدوى والقروى، ولكن الأمر يتصل – فنيًّا – بطرق التعبير الأسلوبية.. ولهذا كان وصف مادة أدب الجاحظ بأنها سيَّالة، وهذا ما ركَّز عليه أبو عثمان عند صناعة الكتابة، ولذلك فهذا الوصف الإيجازى المكثف قد ارتكز على ثلاثة أمور هى:

1 – **حركة المادة وجريانها بشكل سلس**؛ وهذا ما يقصده الجاحظ بكثرة الماء، وإقامة الوزن الذى يدفع بدينامية رفاقه، سيالة الحركة.

2 – **رونق المادة الأدبية عند الجاحظ برَّاقة**؛ تقوم على تحقيق الهدف الأسلوبى والذى يجيده الجاحظ، من حيث الاعتماد على شكلية الأسلوب المتصل بطبيعة المضمون، الذى يصب فى هذا الشكل.. أو بمعنى أكثر فنية: إن رؤية المضمون، ورغبة تشكيلها تصنع هذه الأبعاد الأسلوبية.

---

(1) المرجع السابق؛ ص265.

3 – **إنَّ طبيعة السرور الذى ينبعث من مواد الأدب عند الجاحظ لها وظائفها المقصودة؛** من حيث التأير على المتلقى، وتلك رغبة تعليمية لها قوتها فى الإقناع، والدفاع من جانب النثر أيضًا بجانب القول الشعرى، عند العقيدة الخاصة لأهل الاعتزل؛ هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الجاحظ – بذكاءه الشديد – يريد العمل بقول النبى ﷺ: «**إنَّ من البيان لسحرًا**»، فأراد صناعة بيان له سحره التأثيرى على المتلقى. ومن هنا استطاع الجاحظ الجمع بين فنون التعبير الممتد من الشفاهية إلى الأدب المكتوب.

النقطة السادسة – «الجاحظ» لسان العرب المعبر:

– 1 –

والمقصود باللسان (اللغة)؛ وهذا أمر أشار إليه ابن خلدون، من جهة علوم اللسان وحديثه عنها[1]. وصف الجاحظ بكونه لسان العرب المعبِّر أمر يدل على طبيعة حركة التفرد البلاغى كأداة تناظرية إقناعية، ويُشير هذا الوصف إلى العناصر البلاغية القولية، فاللغة التى هى لسان المقصود – هنا – يُقصد منها تلك اللغة الفنية، فهو لسان العرب المحتوى لطبيعة اللغة المعبِّرة فى مستواها الفنى، وكذلك المستوى التوصيلى، كما يُشير هذا الوصف بطبيعة خبرة الجاحظ باللهجات وما يعتبرها، كما ترى من خلال حديثه فى الباب الأول من «البيان والتبيين»؛ حيث الدراسة الفنية لحركة القول، وخروجه من مخارجه.

– 2 –

ولا يقف هذا الوصف (بشياخة العرب) للجاحظ عند هذا الميدان الخاص، ولكن هذا الوصف ينقلنا إلى الإشارة المقصودة إلى ثقافة الجاحظ اللغوية – والتى أشرنا إليها فى هذا المحور –، لقد أخذ الجاحظ اللغة من عدَّة موارد مهمة، فحذق اللسان العربى المبين فى حَضَرِهِ وباديته، فكان لسان العرب الفصيح.

---

(1) يُنظر: ابن خلدون... وحديثه عن علوم فى «المقدمة».

obeikandl.com

ويعبِّر هذا الوصف – كذلك – على جمع الجاحظ لكل أبعاد القيم القولية ذاتها، حيث الحرص على الإنابة والفصاحة والوضوح؛ وكلها أدوات القول البليغ، وكلها – أيضًا – آليات الحُجَّة، والجدل، ومقدرة التأليف.

النقطة السابعة – كتب الجاحظ ورسائله وفنية التأليف :

– 1 –

لقد وصف (ثابت بن قرة) كتب الجاحظ ورسائله بأنها: «رياض زاهرة وأفنان مثمرة»، فوصف الكتب الجاحظية بأنها رياض زاهرة، أمرٌ دال على عمومية التأليف عند الجاحظ، فكتبه موسوعات كبيرة اتسمت بالجمع المتعدد لمعارفٍ شتَّى، ولكنها انتظمت فى سلك فنى واحد، وذلك حسب الرؤية التعددية، ورغم ذلك فهى تسير فى خط واحد قوى، ولكنه خط لا يبدو لقارئ الجاحظ من أول وهلة، وإنما هو أمر يحتاج إلى عمق القراءة الشاملة لأعماله، فالجاحظ ذكى ماهر الذكاء، لا يعطى القارئ أسراره دفعة واحدة، وإنما على قارئه الصبر والجَلَد مع القرارات المتعددة له، ومع هذه القراءات سيجد متعة التعرف على منهجه، كما سيجد متعة الارتباط بدوائر معرفية متصلة متشعِّبة، ولكنها مع ذلك تكون وحدة متماسكة. ولأن الجاحظ كان واعيًا يجعل كُتبه رياضًا زاهرة، فقد وضع منهجًا فنيًّا للتأليف – تأيف الكتب والرسائل –؛ وهذا المنهج يُشير فيه إلى ضرورة التنوع والتغيير – يقول فى ذلك: «وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف، التى تستكد النفوس، وتستفرغ المجهود»[1].

فمنهجية الجاحظ فى التأليف تعتمد على التنوع، وجعل الكتاب روضة باسقة لا يمل روَّادها مطلقًا، وذلك لأن الجاحظ يعلم تمامًا «أن للصبر غاية وللاحتمال نهاية»[2].

---

(1) الجاحظ؛ **رسالة فى النساء** – ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثالث، ص153.

(2) نفسه؛ ص153.

- 2 -

ولا يقف الجاحظ عند ذلك الحد، بل أشار إلى أمر مهم للقارئ؛ وهو أن يكون هناك أمور تنشيطية له - «فلابد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشِّط القارئ، وينفى النُّعاس عند المستمع»[1].

كل هذه الأمور التنشيطية لابد لها من جهد معين من المؤلف نفسه، ولهذا تنوع الكتاب بمادته، وجمع ما يُمكن أن يُعرف عند الجاحظ بالمحاسن والأضداد - «فالكتاب وعاء ملىء علمًا، وظرف حُشِىَ ظرفًا، وإناءٌ شُحِنَ مزاحًا وجدًّا، وإن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه»[2].

فالجاحظ يركز تركيزًا على طبيعة المادة التى تُصَبُّ فى هذا الوعاء، فالمحتوى لابد وأن يكون مناسبًا، فمادة الكتاب – مهما كان - مادة علمية منضبطة، كما لابد له من عرض خاص، له أبعاده. ومن ثَمَّ فإن الجاحظ اتبع ما أشار إليه – هنا - وأكَّد عليه فى أكثر من موضع.

وكتاب «البيان والتبيين» وعاء كبير، حيث خطط لهذا الوعاء تخطيطًا واعيًا منضبطًا، يتفق مع طبيعة الكتاب، وكذلك وضع حجمه الكبير؛ فلقد جعل هذا الكتاب روضة باسقة مليئة بالأشجار، ومن ثَمَّ بالأفنان الكثيفة، فكيف تكون المادة العلمية فى هذه الموسوعة الكبيرة فى مرأى الجاحظ، إنها ستكون مادة شهية، شائقة، متدفقة، متساوقة مع بعضها البعض، ولهذا يتحدث عن الكتاب وكيف يستنطقه القارئ؛ فيقول: «من لك بواعظ ملهه، وبزاجر مقره، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار، ومن لك بطبيب أعرابى، ومن لك برومى هندى وبفارسى يونانى، وبقديم مولد»[3].

---

(1) نفسه؛ ص153.

(2) الجاحظ؛ **الحيوان**، الجزء الأول، ص38.

(3) نفسه؛ ص38.

فكل هذه الأمور يجمعها الكتاب، متحدثًا لك من خلال الصراع النشط عن متضادات انتظامية، سلكها مع بعضها البعض فى منهج مقصود من المؤلف.

إنَّ الجاحظ يدعو من خلال حديثه عن الكتاب إلى ضرورة اتباع منهج معين لكل كتاب، ويعمل هذا النظام على نَظْمِ المادة العلمية التى به نَظْمًا لا خلل فيه. ومن هنا كان الرد على من يدعون أنَّ منهج الجاحظ فى «البيان والتبيين»: لم يخضع لمنهجية واضحة وبناء مُحكم[1]. فهذا القول مردودٌ عليه من حيث منهجية الجاحظ المعروفة؛ والتى أشار إليها هو ذاته من خلال ضرورة العناية بتنقيح الكتاب مرة تلو الأخرى، فلا يقتصر على مجرد التأليف الأولى[2].

ولأن صفتى «الانتظام والترابط» فى أعمال الجاحظ التأليفية تُعَدُّ هدفًا مقصودًا عنده، لهذا جاءت كتبه – كما وصفها الآخرون – إبداع خاص، فهذه الكتب بموادها تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البُرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمه السامع؛ خرج من جيدٍ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة»[3].

وَوَصْفِ المسعودى لكتب الجاحظ، ومؤلفاته ترتكز ارتكازًا واضحًا على منهجية خاصة ومقصودة؛ فهذه الكتب الجاحظية تعنى بالعقل والتفاعل معه أيُّما تفاعل، فالأذهان تجلى فى قراءتها، وتلك إشارة فنية لها مغزاها الفكرى، حيث عناية أبى عثمان بالدينامية العقلية، وإزالة صدأ العقل لا يكون بدون جهد عقلى مُحكم فى بناء العمل. ومن هنا كان وضعه لشروط تأليفية تضمن قوة التأليف، ومتانة المادة – يقول: «واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً ولأهل النظر مألفًا؛ حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل

---

(1) حمادى صمود؛ **التفكير البلاغى عند العرب**، ص143.

(2) راجع: الجاحظ؛ **الحيوان**، الجزء الأول، ص39. [يقول الجاحظ فى المحاسن والأضداد عن الكتاب ومحاسنه؛ ص5].

(3) المسعودى؛ **مروج الذهب**، الجزء الرابع، ص109.

الذى يبلغ لنفسه، حتى لو لم يقرأ القارئ من كتابه إلَّا مقالة خصمه لخُيِّل له أنه الذى اجتباه لنفسه»[1].

فهذه الدعوة التى يريدها الجاحظ تهدف إلى الاهتمام بالجانب الحيادى فى التأليف، وترك اتِّباع الهوى، ولهذا فقد أشار المسعودى إلى أنَّ الكتب الجاحظية تجلو العقل، باعتمادها على الحياد، وإعمال النشاط العقلى بكل أبعاده. لقد دعا الجاحظ إلى الاستقصاء بين الخصم وبين نفسه.

-3-

فهذا المنهج الخاص الذى يؤكده الجاحظ فى صناعة الكتاب؛ من حيث طبيعة المادة المحتوية له، وبالطبع فإنه ينعكس أيضًا على المنهج المتَّبع فى اختيارات المفاهيم البلاغية.

وإذا كانت كتب الجاحظ تُخاطب العقل فهى رياض زاهرة - أيضًا - بجانب ذلك. ومن هنا جمعت بين المنهج العلمى والذوق الأدبى.

وما ينطبق على منهج الجاحظ فى تأليف الكتب ينطبق - بالضرورة - على منهجه فى تأليف الرسائل؛ وهى - كما يقول قرة - أفنان زاهرة. وبذلك تكتمل الدائرة المعرفية الجاحظية، فتكون الدينامية العلمية التى تعمل بأبعادها على تحريك مواده العلمية.

(1) الجاحظ؛ **العثمانية**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1951م، ص280.

obeikandl.com